شباب
النادي الشبابي

الصلاة عماد الدين

تأليف

الدكتور حسن الترابي

الصلاة عماد الدين

الصلاة عماد الدين

دكتور حسن الترابي

النادي الشبابي

حُقوق الطبع محفوظة

الطبعة الخامسة

١٤١٤هـ - ١٩٩٤م

دار القلم للنشر والتوزيع

شارع السور - عمارة السور - الطابق الأول
هاتف: ٢٤٥٧٤٠٧ - ٢٤٥٨٤٧٨ - برقيا توزيكو
ص.ب ٢٠١٤٦ الصفاة 13062 الكويت

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

هذا كتاب في معاني الصلاة وآثارها في حياة المسلم . من حيث أنها أم العبادات وأنها تربية كاملة للمسلم تورثه نفساً مُشربة بمعاني الايمان جميعاً وحياة طيبة عامرة بالعبادة وصالح الأعمال .

وهو بيان للحكم البالغة والمقاصد الجليلة التي جعلت من شعيرة الصلاة عماداً لكل شعب الايمان، وقاعدة لكل صنوف الطاعات، حتى كادت أن تكون جماعاً لأركان الدين، تمثل كلاً منها بوجه ما وتحتويها جملة في صورة مصغرة وحتى استحقت أن تكون أوجب واجبات الإسلام العملية .

والكتاب من خلال ذلك يلقي ضياء على تكامل تعاليم الإسلام ووحدة المعنى التي تربط عراه ، بما يكشف عن الاتساق والتلازم بين الصلاة وبين سائر العبادات، بل بينها

وبين تكاليف الدين في شتى نواحي الحياة .

ولا ريب أن الصلاة طاعة يدخرها صاحبها للدار الآخرة وعبادة يبتغي بها وجه الله ويرجو مفازاً وأجراً كريماً في حياة الخلود . ولكن هذا البحث إنما يعالج بيان آثارها في عاجل أمر المصلي ، وكيف تنبسط تلك النتائج وتتشعب في جوانب حياة المسلم فتزيده خيراً ورشاداً وتبارك في المنتهى حسن عاقبته يوم الدين . ولئن كانت الصلاة شعيرة تعبد محض واجبة الأداء مهما قصر إدراك المصلي لأبعاد حكمتها ، أو كانت آثارها وبركاتها ربما تحصل له من حيث لا يستشعر ، فإن تمام الفقه بوظائفها يزيده اطمئناناً إلى تعظيم أمرها وأن الفقه بمقاصدها يضاعف ثمارها في نفسه وحياته .

وقد اشتهرت مباحث التعليل واستنباط الحكمة في أبواب المعاملات من الفقه الإسلامي نسبة لقلة النصوص واختلاف الظروف والمصالح، مما يدعو إلى تفهم المقاصد الكلية للأصول الشرعية والبناء عليها بالقياس والاجتهاد ، بينما غلب على فقه الصلاة سرد الأحكام وتفصيل الفروع . ولكن الحاجة لتجديد أمر المسلمين في شأن الصلاة تدعو لتعميق العلم بمعانيها وحكمها ليهتم لها المسلمون ويحسنوا أداءها ويحققوا الأغراض الجليلة المنوطة بها .

وفضلاً عن ذلك فإن توثق أسباب الاتصال بين العالم قد ضاعف فرص الدعوة الإسلامية، واستوجب علينا عرض

أحكام الاسلام ومبادئه بمعايير التفاهم العقلي التي تقربها لغير المؤمنين . وقد أدى اتساع العلم بالطبيعة وتجلي الوحدة والاتساق في نواميسها إلى شيوع النظر المنهجي الفاحص والدراسة الشمولية لشئون الحياة ، مما يتيح للمسلمين — إذا ما أبرزوا نظام الإسلام بنهجه المتكامل وحكمته البالغة — هداية المفكرين الضالين الذين زهدهم في الدين طقوس غير مفهومة وتقريرات غير معقولة وشتات تعاليم غير منظومة .

وإذا وردت أحكام الصلاة في هذا الكتاب فلا ترد بالتبويب المعهود، ولن يقصد منها استقصاء الفروع أو إثبات الأصول الشرعية ، فتلك مسائل أوفتها بالدراسة كتب فقه المذاهب وفقه الأصول، فما من مسألة عنى بها فقهاء الأحكام كالصلاة . أحصنوا أعمالها وفصلوا تكاليفها من الفرض والندب إلى الكراهة والتحريم ووضحوا أوضاعها من شروط وأسباب وما يكتنفها من رخص وعزائم وما يعتريها من وجوه الصحة والفساد وحققوا حجية كل حكم فيها بالرجوع إلى الأدلة الشرعية .

ويشتمل الكتاب على طائفة من أذكار الصلاة مما يزيدنا فقهاً بمعانيها وأغراضها، ولكنه لا يحصي كل مأثور الذكر في هذا المجال، فقد جردت لأقوال الصلاة دراسات واسعة في كتب الحديث والأذكار .

وليس من شأن الكتاب كذلك أن يستفيض في شرح

الأحوال النفسية التي تنشأ في الصلاة أو من أثرها ، فتلك أمور رهينة بأسرار التركيب الشعوري لكل فرد متدين . والصلاة بهذا الوجه تجربة شخصية يذوق فيها المصلي من اللطائف الخاصة ما لا يحيط به التعبير ولا يحده إلا حظه من الايمان .

بل إنه لا مطمع في أن تحيط هذه الورقات بكل المعاني والآثار العامة للصلاة — وهو صميم الموضوع الذي تتناوله — لأن حكمة الصلاة علم لا يتناهى لفكر بشر . وإنما نحاول أن نوسع آفاق علمنا ونزداد فقهاً ، لا سيما أن عامة المسلمين قد قنعوا من الصلاة بمراعاة أحكام الأداء الشكلي حتى فرطوا في كثير من فوائدها المرجوة وحتى اغتر بعض غلاة الشاطحين فعدوها شكلاً ووسيلة يتجاوزها الواصلون !

ولعلّ شيئاً من التأمل في صلاة الفرد والجماعة وفي معانيها من حيث المظهر والمضمون وفي آثارها في النفس والحياة — يعيننا على فهمها فنقدرها حق قدرها ويكشف مدى خسراننا بإضاعتها فنحفظها ونقيمها ونجني ثمارها الطيبة .

فهذا الكتاب خطاب :

• إلى المصلين الساهين عن معنى ما يؤدونه إلا مراعاة لمجتمع رقيب أو وفاء بتقاليد أسرة صالحة أو مناصرة لمظهر عصبية دينية !

• وإلى الذين تركوا الصلاة وما زال في نفوسهم جذوة من إيمان وقبس من دين لم يمرقوا من ملة الاسلام ولكنهم جهلوا حكمة تلك العبادة فلم يبالوا بها وهي أوجب الواجبات .

• وإلى أبناء المسلمين الذين هجروا دين آبائهم حجبهم عن نوره الجهل الموروث وفتنهم الفكر اللاديني الجامح الخارج على الديدنات المظلمة .

• وإلى الغرباء عن الاسلام الذين ينشدون علماً بحقائقه .

والله ولي التوفيق .

حسن الترابي

النادي الشبابي

الصلاة أولى الفرائض العملية في الدين

١ ـ الشعيرة الباقية عبر الرسالات :

الصلاة عبادة تحقق دوام ذكر الله والقربى من جنابه . وتمثل تمام الطاعة والإسلام لله والتجرد له وحده بلا شريك . وتربي النفس على معاني التقوى والإنابة والصبر والتوكل والجهاد ، وتهيء المؤمن لحياة صالحة بين جماعة المؤمنين .

فهي عمل من صميم التدين ولذلك كانت سنة مطردة على تعاقب رسالات السماء ، تكليفاً من الله يلتزم بها أولئك المصطفون الأخيار الذين حملوا أمانة النبوة وعبء الرسالة. يوثقون بها أسباب الاتصال بالله ويتهيأون لتلقي الوحي والإلهام ويتزودون طاقة روحية تعينهم على أثقال الرسالة ومجاهداتها ، ثم وصية يوصون بها عشيرتهم الأقربين وبلاغاً يؤدونه إلى قومهم المؤمنين .

فذلك إبراهيم أبو الأنبياء عليه السلام يدعو ربه لنفسه ولذريته : «رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ[1] » . ومضى في الساجدين لتبقى الصلاة في عقبه : «وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلاً جَعَلْنَا صَالِحِينَ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاةِ وإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ »[2] . وعلم إبراهيم أن في إقام الصلاة إعماراً لمراكز الدين والعبادة وقياماً بشئون القيادة والإمامة الدينية التي كان يرجوها من بعده لذريته ، فهو يدعو الله أن يلين قلوب الناس لتنقاد لأبنائه المصلين : «رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ المُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ »[3] . وقام إسماعيل من بعد أبيه كذلك بسنة الصلاة ووصى بها أهله : «وَاذْكُرْ فِي الكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً . وكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ

---

(١) إبراهيم آية ٤٠ .
(٢) الأنبياء ٧٢ – ٧٣ .
(٣) إبراهيم ٣٧ .

وَكانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيّاً »[1] .

وهذا موسى عليه السلام يتلقى التكليف من ربه تكليماً بعبادة الله وإقام الصلاة أم العبادات : « إنّني أنَا اللهُ لا إلَهَ إلاّ أنَا فَاعْبُدْني وَأقِمِ الصّلاةَ لِذِكْرِي »[2] . وكانت الصلاة فيما أخذ على بني إسرائيل من ميثاق : « وَإذْ أخَذْنَا مِيثَاقَ بَني إسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إلاّ اللهَ ... وَأقِيمُوا الصّلاةَ وَآتُوا الزّكاةَ ثُمّ تَوَلّيْتُمْ إلاّ قَليلاً مِنْكُمْ وَأنْتُمْ مُعْرِضونَ »[3] . وكانت زادهم من التقوى في ظروف المحنة : « وَأوْحَيْنَا إلى مُوسى وَأخِيهِ أنْ تَبَوّءا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتاً وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأقِيمُوا الصّلاةَ وَبَشّرِ المُؤْمِنِينَ »[4] .

واعتصم شعيب عليه السلام بسنة الصلاة فكانت في أهل مدين مظهر الدعوة الجديدة حتى جعلوها علة لما ينصحهم به رسولهم من نبذ الشرك الموروث والإقلاع عن الظلم الاقتصادي : « قَالُوا : يَا شُعَيْبُ أصَلاتُكَ تَأمُرُكَ أنْ نَتْرُكَ ما يَعْبُدُ آبَاؤنَا أوْ أنْ نَفْعَلَ في أمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إنّكَ لأنْتَ الحَلِيمُ الرّشِيدُ »[5] .

---

(١) مريم ٥٤ – ٥٥ .
(٢) طه ١٤–٦٧ .
(٣) البقرة ٨٣ .
(٤) يونس ٨٧ .
(٥) هود ٨٧ .

وكانت الصلاة في موعظة لقمان الحكيم لابنه : « يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وأْمُرْ بِالمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ المُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى ما أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ »[1] .

وجارة المحراب مريم ابنة عمران جاءتها الملائكة بأن تقنت وتصلي للذي طهرها واصطفاها على نساء العالمين : « يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ »[2] .

ثم أتى عيسى بن مريم عليه السلام يعلن في مستهل منطقه المعجز أن الله اختصه بالكتاب والنبوة والبركات وأوصاه بالصلاة طول الحياة : « قَالَ إِنِي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ ما كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً »[3] .

فما انفكت الصلاة في عداد الشعائر والتعاليم الخالدة التي لازمت هذا التراث الديني الذي هو الإسلام والذي تتابع الوحي وتوالت الرسل تجدده وتحيي سننه ، بل كانت أبرز المعالم في توجيهات الإسلام العملية وأوكد الوصايا التي خوطب بها الرسل بعد التوحيد ، وكذلك كان شأنها في الإسلام كما بعثته وأتمته خاتمة الرسالات .

---

(١) لقمان ١٧ .
(٢) آل عمران ٤٣ .
(٣) مريم ٣٠ - ٣١

٢ ـ فريضة الله الأولى في الإسلام :

لعل الصلاة كانت في كل الرسالات أولى الفرائض العملية التي جاءت لتصديق عقيدة الايمان وتنفيذ معنى العبادة لله .

فقد كان أول خطاب الله لموسى الكليم مشتملاً ـ بعد تعريف ربه به وإعلامه بأنه اختير للتلقي والتبليغ ـ على الأمر بعبادة الله وإقام الصلاة لذكره : «فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى إِنِّيَ أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ، وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ، إِنَّنِي أَنَا اللهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي »[1] .

ولما بُعث محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ رسولاً من الله ومصدقاً لما بين يديه وشاهداً على وحدة دين الإسلام شرعت له الصلاة في مثل المرحلة التي شرعت فيها لموسى عليه السلام :

فقد بدأه الوحي بمطالع السور الأولى فنزل عليه جبريل لأول العهد في حِراء بمستهل سورة العلق[2] ولقنه قرآناً باسم الله يصف له من صفات ربه الحسنى : «اقْرَأْ بِاسْمِ

---

(١) طه ١١ ـ ١٤ .

(٢) البخاري ومسلم .

رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ . خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ . إِقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ . الَّذِي عَلَّمَ بِالقَلَمِ . عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ »[1] . ثم فتر عنه الوحي فلما عاده الملك مره أخرى فزع منه إلى أهله وادثر فنزل عليه مطلع المدثر[2] وفيه التكليف بأن يقوم في الناس منذراً مكبراً ربه والأمر بأن يطهر ثوبه توطئة لإقام الصلاة التي نزلت بهاالآيات الفواتح من سورة المزمل : « يا أيها المُدَّثِّرْ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ . وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ »[3] .

وكانت الصلاة — مع القرآن وذكر الله والتوكل عليه — عدة الرسول الأولى لتحمل أثقال الوحي والنبوة وللصبر على حملة التكذيب : « يا أَيُّهَا المُزَّمِّلُ قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً . نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً . أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ القُرْآنَ تَرْتِيلاً . إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً . إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلاً . إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً . رَبُّ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً . وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً »[4] .

---

(١) العلق

(٢) الشيخان .

(٣) المدثر ١ — ٤ .

(٤) المزمل ١ — ١٠ .

ولما اكتملت سورتا العلق والمدثر ورد في لاحق آياتهما ذكر الصلاة إذ أنها كانت أسبق مظاهر الدين الجديد فأصبحت الهدف الأول لكيد المكذبين : « أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى عَبْداً إذا صَلَّى[1] » وأنها أول عمل كفر به أولئك المكذبون وأول ما يندمون على تضييعه يوم القيامة : « ما سَلَكَكُمْ في سَقَرَ ؟ قَالُوا : لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ[2] .. » .

ثم إن القرآن الذي اتخذ فرضاً لازماً في الصلاة هو الآيات السبع المثاني التي تتألف منها رابعة سور القرآن نزولاً وفاتحة كتاب الله ترتيباً .

وكانت الصلاة أول حكم يطرأ عليه التخفيف بعد التكليف لأنها كانت أولى الفرائض العملية . وقد نزلت به خواتيم المزمل التي جاءت بعد نحو عام من نزول فواتحها[3] لتنسخ فرض قيام الليل الذي كان الجد فيه لازماً لظروف الدعوة الأولى ولترفع الحرج وتجعل القيام نفلا يناسب حاضر المسلمين إذ تكاثروا وأعجزت بعضهم ظروف الصحة وكسب العيش ويوافق ما كانوا يستقبلون من ظروف القتال في سبيل الله .

وتؤكد السيرة ما تشهد به أوليات القرآن ، فقد روي أن جبريل قام بتعليم النبي ﷺ كيفية الوضوء والصلاة في أول

---

(١) العلق ٩ - ١٠ .
(٢) المدثر ٤٢ - ٤٣ .
(٣) صحيح مسلم .

عهد البعثة، وعلمها الرسول زوجه خديجة وسائر الصفوة التي سبقت إلى الإيمان ، وكان هو وأصحابه يذهبون في شعاب مكة يستخفون بصلاتهم تقية من أذى قومهم ثم جهر بها ﷺ وأقامها في الملأ بالمسجد الحرام وهناك تهدده أبو جهل ونهاه فنزل فيه القرآن المتقدم ذكره من سورة العلق[1] .

ولما أراد الله أن يحكم فرض الصلوات بكتابها الموقوت لم ينزل بها ملكاً إلى الأرض وإنما أنعم على رسوله الكريم بمعراج إلى السماء[2] وهنالك مثل بين يدي ربه وتلقى من لدنه هذا التكليف الجليل . وحق للصلاة أن تعظم هذا التعظيم من دون سائر الشعائر والتعاليم وأن تؤخذ عن قرب من جوار الله لأنها مطية القربى منه والوقوف بين يديه ولأنها معراج متاح لكل مسلم إلى ربه يفزع إليه ليؤويه بالأمن والسكينة كما آوى عبده ورسوله بالمعراج في فترة حرج بالغ اشتد به فيها صدود الكفار وأذاهم وأوحشه فقد المؤنس والنصير بعد هجرة أصحابه إلى الحبشة ووفاة زوجه وعمه عام الحزن[3] .

وكما كانت الصلاة أول شعيرة تفرض في مكة فقد كانت كذلك أول عبادة تكتمل بالمدينة ، فقد فرضت ركعتين ركعتين حتى هاجر النبي ﷺ فزيد في صلاة الحضر[4] وفي المدينة

(١) ابن هشام .
(٢) الشيخان .
(٣) ابن هشام .
(٤) النسائي .

أتمت بعدها سائر شعائر العبادة، فاوجب صيام رمضان وكتب الحج إلى البيت الحرام وعينت مقادير الزكاة كما فرضت معظم التكاليف العامة في الإسلام .

فالصلاة بعد العقيدة هي أولى واجبات الإسلام خوطب بها النبي ﷺ وقد جاءه الأمر بها في ذات السورة التي روت حديث الإسراء : « أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إلى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الفَجْرِ إنَّ قُرْآنَ الفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً ، وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً[1] » فضلاً عن سوالف الأمر له بالصلاة : « وأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ إنَّ الحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ[2] » « اتْلُ مَا أُوحِيَ إلَيْكَ مِنَ الكِتَابِ وأَقِمِ الصَّلاةَ إنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ والمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أكْبَرُ واللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ[3] » والوصاة له بأن يأمر بها أهله : « وَأْمُرْ أهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى[4] » وقد ورد بالصلاة كذلك توجيه مخصوص لنساء النبي ﷺ :

---

(١) الإسراء ٧٨ - ٧٩ .
(٢) هود ١١٤ .
(٣) العنكبوت ٤٥ .
(٤) طه ١٣٢ .

« وَقَرْنَ في بِيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبرُّجَ الجَاهِلِيَّةِ الأولى وَأقِمْنَ الصَّلاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأطِعْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ إنّما يُرِيدُ اللهُ أنْ ليذهب عَنْكُمُ الرِّجْسَ أهْلَ البَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً[1] » .

والصلاة لأمة الرسول كذلك هي أول عمل تخاطبهم به دعوة الإسلام : « وَهَذَا كِتَابٌ أنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أمَّ القُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخرةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلى صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ[2] » « قُلْ لِعِبَادِيَ الذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِراً وَعَلانِيَةً مِنْ قَبْلِ أنْ يَأتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خِلالٌ[3] » ، « يَاأيّهَا الذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا ربَّكُمْ وَافعَلُوا الخيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ وَجَاهِدُوا في اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ في الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أبِيكُمْ إبرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ المُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلى النَّاسِ فَأقِيمُوا الصَّلاةَ

(١) الأحزاب ٣٣ .

(٢) الأنعام ٩٢ .

(٣) إبراهيم ٣١ .

وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ المَوْلى وَنِعْمَ النَّصِيرُ[1] » .

وهي أيضاً من بين الأعمال أول أسباب البشارة بحسن الجزاء في الآخرة للطائعين وأول مسائل الحساب للعاصين : « إنَّ الذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ[2] » ؛ « مَا سَلَكَكُمْ في سَقَرَ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ المُصَلِّينَ[3] » .

وقررت السُنة بعد القرآن نفس المكانة العظيمة للصلاة . فهي في دار العمل رأس الطاعات وأفضل أعمال الإسلام . فقد سئل رسول الله ﷺ : أي الأعمال أفضل (أو أحب إلى الله) فأجاب : « الصلاة على وقتها[4] » . وهي في دار الجزاء فاتحة الحساب : « إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته فإن صلحت فقد أفلح ونجح وإن فسدت خاب وخسر[5] » والضامن للفوز والمغفرة : « خمس صلوات من أحسن وضوءهن وصلاتهن لوقتهن وأتم ركوعهن وسجودهن

---

(١) الحج ٧٧ - ٧٨ .
(٢) فاطر ٢٩ .
(٣) المدثر ٤٢ - ٤٣ .
(٤) الشيخان .
(٥) الترمذي .

وخشوعهن كان له عهد على الله أن يغفر له ومن لم يفعل فليس له على الله عهد إن شاء غفر له وإن شاء عذبه[1] » .

وإذا كانت الصلاة في الإسلام أول العمل الصالح وأفضله فهي لذلك أبرز المظاهر والسمات للمسلمين العاملين تميزهم في واقع الحياة عن سائر الناس .

---

(١) أبو داود .

الصلاة السمة المائزة لأهل الاسلام

١ ـ الصفة اللازمة للمؤمنين :

الصلاة فيما يقرر القرآن مصداق الإيمان وأثره الأول فهي لذلك الصفة اللازمة للمؤمنين ولا يرد فيهم بيان يصف أحوالهم وأعمالهم إلا وللصلاة فيه ذكر بل الغالب أن يكون لها مكان الصدر .

ولعل أبلغ بيان قرآني عن مقام الصلاة من بين صفات أهل الإيمان قد جاء في فواتح سورة « المؤمنون » وآيات من سورة المعارج، فقد ذكرت الصلاة في أول تلك الصفات وفي آخرها لأن الصلاة تحيط بالأعمال الصالحة كلها وتكاد تحتويها جميعاً بوجه ما وتمثلها في صورة مصغرة .: « قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ، الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ، إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ

أوْ مَا مَلَكَتْ أيْمَانُهُمْ فَإنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ، فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ العَادونَ ، وَالذِينَ هُمْ لِأمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ، والذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ أُولَئِكَ هُمُ الوَارِثُونَ الذِينَ يَرِثُونَ الفِرْدَوسَ هُمْ فِيهَا خَالِدون[1] » « إنَّ الإنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً ، إذا مَسَّهُ الشَرُّ جَزُوعاً وإذا مَسَّهُ الخَيْرُ مَنُوعاً ، إلاَّ المُصَلِّينَ ، الذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ وَالذِينَ فِي أمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ، لِلسَّائِلِ والمحْرُومِ . وَالذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيومِ الدِّينِ ، والذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ، إنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأمُونٍ والذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ، إلاَّ عَلَى أزْوَاجِهِمْ أوْ مَا مَلَكَتْ أيْمَانُهُمْ فإنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ، فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ العَادُونَ ، والذِينَ هُمْ لأمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ والذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ ، والذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ[2] » .

ويطرد في القرآن ذكر الصلاة ضمن ما يتسم به المؤمنون من صالح الأعمال مما يؤهلهم للبشرى بأجر كريم : « إنَّمَا

(١) المؤمنون ١ – ١١ .
(٢) المعارج ١٩ – ٣٥ .

المُؤْمِنُونَ الذينَ إذا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قلُوبُهُمْ وَإذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إيماناً وعلى ربِّهِمْ يَتَوكَّلُونَ الذينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ . أُولَئِكَ هُمُ المؤْمِنُونَ حَقّاً لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ[1] » . « والمؤْمِنُونَ والمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ إنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ[2] » . « إنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ المُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ في سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً في التَّوْرَاةِ والإنْجِيلِ والقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الذي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ ، التَّائِبُونَ العَابِدُونَ الحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالمَعْرُوفِ والنَّاهُونَ عَنِ المُنْكَرِ والحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ وبَشِّرِ المُؤْمِنِينَ[3] » . « طس تِلْكَ آياتُ القُرْآنِ وكِتَابٍ مُبِينٍ هُدًى وَبُشْرَى لِلْمؤمِنِين

---

(1) الأنفال ٢ – ٤ .

(2) التوبة ٧١ .

(3) التوبة ١١١ – ١١٢ .

الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون[1] » . « إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجداً وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون[2] » ، « فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ، والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون[3] »

وما يكاد القرآن يمتدح أهل الإيمان بالنعوت الحميدة ويفصلها بتعداد أعمالهم الصالحات إلا كانت الصلاة من بينها . فهي العمل اللازم للمتقين الأبرار أولى الألباب وللمخبتين عباد الرحمن وللمحسنين الذين يعملون : « الم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ، الذين يؤمنون بالغيب

(١) النحل ١ - ٣ .
(٢) السجدة ١٥ - ١٧
(٣) الشورى ٣٦ - ٣٩

ويُقيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ[1] » .
« لَيْسَ البِرَّ أنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ
وَلَكِنَّ البِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ واليَوْمِ الآخِرِ والمَلائِكَةِ
والكِتَابِ والنَّبِيِّينَ وأتى المَالَ عَلى حُبِّهِ ذَوِي القُرْبَى
واليَتَامَى والمَسَاكِينِ وابْنِ السَّبِيلِ والسَّائِلِينَ وفي الرِّقَابِ
وأقَامَ الصَّلاةَ وآتَى الزَّكَاةَ والمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إذَا
عَاهَدُوا والصَّابِرِينَ في البَأْسَاءِ والضَّرَّاءِ وحِينَ البَأْسِ
أولَئِكَ الذِينَ صَدَقُوا وأُولَئِكَ هُمُ المُتَّقُونَ[2] » ،
« إنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ الذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ
وَلا يَنْقُضُونَ المِيثَاقَ . والذِينَ يَصِلُونَ مَا أمَرَ اللهُ
بِهِ أنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ويَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ
وَالذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وأقَامُوا الصَّلاةَ
وَأنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلانِيَةً وَيَدْرَءُونَ
بِالحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ[3] » « وَبَشِّرِ
المُخْبِتِينَ الذِينَ إذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ والصَّابِرِينَ
عَلى مَا أصَابَهُمْ وأقَامُوا الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ
وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الذِينَ يَمْشُونَ عَلى الأَرْضِ هَوْناً وإذا

(١) البقرة ١ – ٣ .
(٢) البقرة ١٧٧ .
(٣) الرعد ١٩ – ٢٠ .
(٤) الحج ٣٤ – ٣٥ .

خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً والذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِم سُجَّداً وقِياماً [1] .. »، « الم تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ الحَكِيمِ هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ ، الذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ [2] » ، أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وقَائِماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الذِينَ يَعْلَمُونَ والذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ [3] » .

٢ – شرط الاسلام ومناط أحكامه :

إقام الصلاةهو السمةالظاهرة التي تشهد بأنالمرء ينطوي على عقيدة الإيمان وهي لذلك في حكم الشريعةالشرط والشارةللدخول والانتماء في ملة الإسلام– للمصلي ما للمسلمين وعليه ما عليهم.

والإيمان والإسلام كلمتان تتقابلان فتنصرف الأولى إلى استقرار العقيدة في النفس والثانية إلى الدخول في الطاعة الظاهرة وقد تطلقان فتدلان بالتناوب على التزام الدين بما يشتمل عليه من عقائد وأعمال . ومتى ما ذكر الدين باسم الإيمان وأهله باسم المؤمنين فإن الملحوظ فيه مع الشمول تمكن العقيدة في

---

(١) الفرقان ٦٣ – ٧٥ .

(٢) لقمان ١ – ٤ .

(٣) الزمر ٩ .

النفس على أتم الوجوه . مما يثمر في واقع الحياة إتيان الطاعات العملية على أتم الوجوه كذلك ويؤهل صاحبه لوعد الله الحق بجنة النعيم . ولما كان تقبل الأعمال رهيناً بالنيات الخالصة فقد رتب القرآن حسن الجزاء على الإيمان وبنى عليه عمل الصالحات كما بدا في الآيات الآنفة الذكر التي تصف أعمال المؤمنين وتزف إليهم البشريات .وقد مضى في تلك الآيات وفي الأحاديث بيان قدر الصلاة بين شعب الإيمان وموجبات الأجر في الدار الآخرة .

وإذا أشير إلى الدين باسم الإسلام فإن الملحوظ هو إعلان المرء تصديقه بالدين وانصياعه في ظاهر الأمر كله لتكاليف الشرع . وإنما يصدر ذلك عن إيمان داخلي ، فإذا خلت الطوية من أصول الاعتقاد بينما سلك المرء في ظاهره مسلك المؤمنين واندرج في زمرة المسلمين فهو منافق محروم من نعيم الآخرة عند الله عليم السرائر ولكنه محكوم في واقع دنياه بحكم المسلمين تسري عليه واجباتهم وحقوقهم لأن أوضاع الناس فيما نطبق من الشريعة إنما تجري على الظاهر المعلوم .

والصلاة للإسلام هي الركن الأهم بعد الشهادة بالتوحيد وتصديق الرسالة وهي الشرط الأول للانتماء لأمة المسلمين : « بُني الإسلام على خمس – شهادة ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج

البيت[1] » ، « من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فهو المسلم[2] » ، وقد سأل رسول الله ﷺ سائل عن آيات الإسلام فقال : « أن تقول أسلمت وجهي لله وتخليت وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة . كل مسلم على مسلم محرم ـ أخوان نصيران ـ لا يقبل من مشرك بعدما أسلم عمل أو يفارق المشركين إلى المسلمين[3] .

وأول عهد المرء بالإسلام ـ بعد الاقرار بالتوحيد والرسالة أن يتعلم الصلاة ويأخذ بها ـ ذلك هو الجواز العملي من الكفر إلى الإسلام . وكان النبي ﷺ إذا أسلم الرجل أول ما يعلمه الصلاة[4] . وإذا قدمت وفود العرب المدينة لتدخل الإسلام استبقاهم حتى يتعلموا الصلاة وشيئاً من القرآن وأخذ عليهم البيعة أو كاتبهم بشروط الإسلام ـ وأهمها الشهادة بالإيمان ثم الصلاة والدخول في سلطان الدولة الإسلامية بأداء الزكاة إلى القائمين عليها والانضواء في الجماعة المسلمة بمنابذة المشركين وموالاة المسلمين ثم تنضاف أية شروط أخرى يقتضيها حال من يؤخذ عليه العهد[5] ومثال مبايعات النبي ﷺ شأنه مع وفد عبد القيس ـ أمرهم بالشهادة وإقام الصلاة وصيام رمضان

---

(١) الشيخان .
(٢) النسائي .
(٣) النسائي .
(٤) البزار والكبير للطبراني .
(٥) طبقات ابن سعد .

وإيتاء الزكاة وخمس المغانم ونهاهم عن الحمور[1] ؛ ومع أصحاب عوف بن مالك الأشجعي : « أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وتصلوا الصلوات الخمس وتسمعوا وتطيعوا .. ولا تسألوا الناس شيئاً[2] » . ومثال مكاتباته كتابه لشيخ جندم : « هذا كتاب من محمد رسول الله ﷺ لمالك بن أحمر ولمن اتبعه من المسلمين أماناً لهم ما أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وجانبوا المشركين وأدوا الخمس من المغانم وسهم الغارمين .. فهم آمنون بأمان الله وأمان محمد رسول الله[3] » .

فالصلاة والزكاة – بعد الشهادة – أبرز شروط عهد الدخول في أمة المسلمين وأمانهم لأنهما سمتان بينتان – إقام الصلاة تكليف للفرد والجماعة لا يرتفع وجمع الزكاة واجب على الجماعة من أغنيائها لا يجوز تعطيله . ولذلك حين جاءت الظروف الحاسمة ووقع الأمر بطرح عهود المشركين وتطهير بلاد العرب من الشرك كانت آية الإسلام الظاهرة التي تفرق بين أهل الجاهلية الذين ينبذ إليهم بالعداء وأهل الإسلام ذوي الحرمة والأمان هي الصلاة والزكاة : « فإذا انْسَلَخَ الأَشْهُرُ الحُرُمُ فَاقْتُلُوا المُشْرِكِينَ حَيْثُ وجَدْتُمُوهُمْ وخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا

---

(١) الشيخان .
(٢) مسلم .
(٣) الأوسط للطبراني .

وأقَامُوا الصَّلاةَ وآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ[1] » . فلا أمان للمشركين حتى يدخلوا في شرط الإسلام الظاهر : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله[2] » ، فإذا تحلوا بحلة الإسلام تلك فلهم بعد العداء الإخاء : « فإنْ تَابُوا وأقَامُوا الصَّلاةَ وآتَوُا الزَّكَاةَ فإخْوَانُكُمْ في الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ[3] » .

بل إن الصلاة قبل الزكاة قد تكون العلامة الحاسمة التي تميز فئة المسلمين لأنها عمل دائم متوال وظاهرة تتجدد مرات في اليوم الواحد تشهد لصاحبها بالإسلام . ولذلك اتخذها النبي ﷺ آية للإسلام في علاقاته مع القبائل العربية : « العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر[4] » . « بين الرجل والشرك ترك الصلاة[5] » وقد تسامح النبي ﷺ مع وفد ثقيف إذ بايعهم فأعفاهم من الصدقة والجهاد وإنما أجلهم لأنه كان واثقاً أنهم متى اسلموا وحسن اسلامهم تصدقوا وجاهدوا ،

---

(١) التوبة ٥ .
(٢) الشيخان .
(٣) التوبة ١١ .
(٤) الترمذي .
(٥) مسلم .

ولكنه لم يتسامح لهم شيئاً في الصلاة لأن الدين لا يستقيم دونها : « إن وفد ثقيف لما قدموا على رسول الله ﷺ أنزلهم المسجد ليكون أرق لقلوبهم فاشترطوا عليه ألا يحشروا ولا يعشروا ولا يجبوا فقال رسول الله ﷺ لكم ألا تحشروا ولا تعشروا ولا خير في دين ليس فيه ركوع[1] » . وكان أذان الصلاة شعاراً يدل على المسلمين فكان النبي ﷺ إذا غزا قوماً لم يغز حتى يصبح وينظر فإن سمع أذاناً كف عنهم وإن لم يسمع أذاناً أغار عليهم[2] » ، وكذلك اتخذه المسلمون من بعد النبي ﷺ فكان أبو بكر إذا بعث جيشاً لحرب أهل الردة أمرهم ألا يقاتلوا أحداً حتى يدعوه إلى داعية الله ـ والداعية الأذان ـ فإذا أذن المسلمون فأذنوا كفوا عنهم وإن لم يؤذنوا عاجلوهم[3] .

وكما أن إقام الصلاة رأس الشروط وأبين الآيات لدخول الرعية في ولاء السلطان المسلم فإنه الشرط الحاسم للصبر على طاعة الأمراء وحد الطاعة للسلطان . فالمسلم مكلف بأن يصبر على الحكام الظالمين وألا يخرج عليهم فيفارق الجماعة ويخرب وحدتها السياسية وإنما له أن ينكر المنكر ويأبى الطاعة لكل أمر فردي يكون فيه معصية الله ، حتى إذا عطل الأمير الصلاة فحينئذ تجوز المنابذة والخروج : « خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم وتصلون عليهم ويصلون عليكم وشرار أئمتكم الذين

(١) أبو داود .
(٢) البخاري .
(٣) تاريخ الطبري .

تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم . قلنا يا رسول الله ألا ننابذهم ؟ قال : لا ما أقاموا الصلاة . لا ما أقاموا الصلاة . لا ما أقاموا الصلاة ، الا من ولى عليه وال فرآه يأتي شيئاً من معصية الله فليكره ما يأتي من معصية الله ولا ينزعن يداً من طاعة [1] ، إنه يستعمل عليكم أمراء فتعرفون وتنكرون فمن كره فقد برىء ومن أنكر فقد سلم ولكن من رضى وتابع ، قالوا أفلا نقاتلهم ، قال لا ما صلوا [2] » .

وخلاصة القول أن إقام الصلاة شرط في الإسلام وأنها من دون الطاعات العملية الأخرى تكاد تكون الفارق الحاسم بين الكفر والإسلام كما تقدمت في ذلك النصوص وكما يروى عن النبي ﷺ : « بين الكفر والإيمان ترك الصلاة[3] » ، « بين العبد والكفر ترك الصلاة[4] » . ولذلك كان أصحاب رسول الله ﷺ لا يرون شيئاً من الأعمال تركه كفر إلا الصلاة [5] » .

وتعطيل سنة الصلاة لا سيما بالنسبة للجماعة من الناس ظاهرة تنافي الإسلام ولكن ترك الصلاة ليس بذاته كفراً باتاً يخرج المرء من ملة الإسلام خروجاً باتاً . فكفر الملة هو الكفر

---

(١) مسلم .
(٢) مسلم .
(٣) الترمذي .
(٤) الترمذي وأبو داود .
(٥) الترمذي .

الأصل الذي ينطوي على الإلحاد أو الشرك بالله أو تكذيب الرسالة أو جحد ما تقتضيه بالضرورة القاطعة . أما كفر المعصية فهو شعبة كفر لا تنسخ أصل الإيمان وإنما تطرأ على المرء المسلم إذا عمل بعمل الكفار كما تطرأ على المسلم خصلة من النفاق أو جنحة من الجاهلية ويكفيه لإتمام دينه أن يثوب إلى العمل الصالح ويستقيم عليه ، إلا إذا أحاطت به خطيئته فأصبح كافراً أو منافقاً أو جاهلياً خالصاً إذ لا ينجيه إلا الدخول في الإسلام من جديد .

فللسلطة المسلمة – في الظروف الحاسمة التي تتمايز فيها الملل – أن تستهدي بآية الصلاة الظاهرة فتصحب الكفر في حق الجماعة التي تعطل الصلاة فتخلعها بذلك من إخاء الإسلام وأمانه ، وللمسلمين أن يسموا تارك الصلاة باسم الكفر من حيث ذلك العمل . فإن تبين المسلمون من معطلة الصلاة ولاء بعد الإسلام أو علموا في هاجر الصلاة أصلاً من عقيدة الأمة حملوهم على ما ينبغي من شعائر الدين ولم يسنوا بهم سنة الردة المطلقة فترك الصلاة كفر دون الكفر الأكبر .

٣ – آية المسلم وشارة استقلاله :

قد شاع في هذا العصر الذي سادت فيه الثقافة المادية الأوربية تصور للدين يجعله شأناً خاصاً بالمرء ليس من الكياسة المجاهرة به وإقحامه في العلاقات العامة . وذلك أن الغلو في التظاهر

والتنافس الديني قد ولد قديماً في أوربا عصبية دينية خربت تاريخها بحروب العقيدة، وأن الدين قد اضمحل أثره عموماً في الحياة الأوربية فلم يعد في العلاقات الاجتماعية شأن كبير لاظهار الجنسية الدينية أو لتعرف الانتماء العقدي للفرد .

أما المسلم فله في الصلاة ما يشهره دائماً بين الناس فلا يعاشره أحد يوماً أو بعض يوم إلا وهو يقوم لصلاته ذات الحركات المتميزة والأوضاع الظاهرة فينحاز ويتعرف دون إعلان بالكلام ولهذه الحقيقة معنى ذو بال يتصل بهدى الإسلام في العلاقات العامة :

فالإسلام يرشد أتباعه إلى التضامن والإخاء ويرشدهم إلى الاجتهاد في تعرف بعضهم إلى بعض وتقربه ، وينظم لهم كثيراً من آداب السلوك لتتماثل سماتهم الظاهرة فيتعارفون بها ويتضاعف استشعارهم لوحدتهم الدينية . وفرض إقام الصلاة له أثر كبير في دعم هذا التوجيه — يعرف المسلم أخاه لتوه إذا رآه ينخفض ويرتفع بالخضوع لله فيقبل عليه بما يرجى أن يثمره اللقاء من تعاون على الخير .

والإسلام يدعو أهله إلى الاستقلال بدينهم وألا يتبعوا فيه أهواء الملل الأخرى بعد أن جاءهم العلم اليقين ولا يلتمسوا الهدى في غير أصول دينهم ولا يدينوا بالولاء لغير اخوانهم في العقيدة . وينظم الإسلام في سبيل تثبيت هذه المعاني طائفة من آداب المظهر يعللها بمخالفة ما يحيط بالمسلمين من أشكال

تمثل انتماء فكرياً يخالف الإسلام ، كما جاء في وصايا النبي ﷺ بمجانبة أعراف المشركين واليهود بشأن اللحية واللبس وأساليب التحية . فالصلاة مظهر إيجابي دائم يبرز به المسلم من دون الناس فيزيد ذلك من إحساسه بالتميز والاستقلال .

والإسلام يحرض أتباعه على التصدي لدعوة الآخرين إلى الهدى ويؤكد عليهم – من أجل ذلك – الإعلان الدائم عن مواقفهم والصدع بحقائق الإسلام . وكم في القرآن من توجيه للرسول ﷺ أن يقول للناس ويقول ويطلق النداءات والبلاغات وكم فيه وفي السنة من حض على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . فالصلاة مظهر إسلامي متميز يقدم المسلم للناس بصورة تعلن عن إسلامه وتدل عليه لمن أراد أن يسائله عن دينه . وربما زين للمرء أن يختص بدينه ويستسر بعبادته من ذكر وصوم ليسلم من تبعات اختلافه عن الآخرين ويندرج في سائر الناس ويذوب في سوادهم لولا الصلاة تبرزه للناس ليتفاعل معهم على أساس من دينهم ودينه .

وقد كانت الصلاة في عهد الدعوة المحمدية عنوان الإسلام ومحط أنظار الذين يراقبون مظاهر الدين الجديد سواء منهم من يريد أن يهتدي إلى الذين اعتنقوه ويتعرفهم أو الذي يريد أن يشهر انضمامه إليهم أو الذي يريد أن يبسط إليهم يده بالفتنة . ولهذا المعنى الأخير استخص المسلمون أول الأمر بالصلاة ثم جهروا بها لما لزمت سياسة الصدع

بالدين فتعرضوا لشتى صنوف الكيد ، وكان في هذه المكايدة – على كرهها – خير كثير لأنها أظهرت الدعوة وأشهرتها وربت حملتها على الجرأة في الحق .

فأشد ما صنع المشركون بالنبي ﷺ في أول عهده إنما استفزتهم إليه صلاته في الحرم : « بينما النبي ﷺ يصلي في حجر الكعبة إذ أقبل عقبة بن معيط فوضع ثوبه في عنقه فخنقه خنقاً شديداً فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبه فدفعه عن النبي ﷺ[1] ». « بينما النبي يصلي عند البيت وأبو جهل وأصحابه جلوس وقد نحرت جزور بالأمس فقال أبو جهل أيكم يقوم إلى سلا جزور بني فلان فيضعه بين كتفي محمد إذا سجد فانبعث أشقى القوم فأخذه فلما سجد وضعه بين كتفيه فاستضحكوا .. [2] » ، وأول ذكر قرآني لفتنة مشركي مكة للمسلمين حادث في شأن الصلاة : « أَرَأَيْتَ الذِي يَنْهَى عَبْداً إذا صَلَّى[3] » وكانت مظاهر الصلاة بالمدينة أيضاً هدفاً لمكايد اليهود : « وإذا نَادَيْتُمْ إلى الصَّلاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُواً وَلَعِباً ذَلِكَ بأنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ[4] » .

وقد يحقر المرء الأثر الإعلاني للصلاة إذ لا يلحظ له شأناً كبيراً في حياة مجتمع قوامه المسلمون ، ولكنه ذو مغزى كبير

---

(١) البخاري .
(٢) الشيخان .
(٣) العلق ٩ – ١٠
(٤) المائدة ٥٨

في المجتمع المختلط حيث تدعو الظروف لتمايز المسلمين وتعارفهم لتنعقد بينهم وشائج الموالاة والمؤاخاة الخاصة وليستشعروا ذاتيتهم المستقلة وحيث تشتد الحاجة لبروز المسلمين كي يعلنوا عن دينهم ويحتملوا تبعات اعتقادهم ويستمروا الفرص المتاحة لدعوة الآخرين .

وكل هذه المعاني يعيش فيها بالتجربة الشخصية من يغترب اليوم عن مجتمع المسلمين ، فما يكاد يقوم المسلم في مشهد من الناس يؤدي الصلاة حتى يطلع عليه من جمهرة الناس إخوان له مسلمون يشدون على يده بتحية السلام ويوثقون معه عرى التعارف والود أو ينبري له من غيرهم هازىء يستغرب تلك الحركات العجيبة أو يقبل عليه بحب الاستطلاع جاد يستوضحه معنى الصلاة ويناشده حقيقة الإسلام ، فلا يملك أن يتذكر ويستشعر من ذلك كله ذاتيته الإسلامية .

وكذلك كان للصلاة ما سبق وصفه من أثر في مجتمع الدعوة الأولى ، بها كان يرى مظهر المسلمين منظراً عجباً متراصين متراحمين ، بل بتثاقل القيام إليها كان يشذ ويفتضح المنافقون ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا

وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وأجْراً عَظِيماً»[1].

«إنَّ المُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإذا قَامُوا إلى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالى يُرَاءُونَ النَّاسَ ولَا يَذْكُرُونَ اللهَ إلاّ قَلِيلاً مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لا إلى هَؤلاءِ ولَا إلى هَؤلاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً»[2].

وما كانت الصلاة سمة تدل على المؤمنين وآية تعرف المسلمين وتميزهم من دون الناس لولا أنها عبادة عملية ظاهرة ذات أوضاع وحركات مخصوصة تقام في الملأ كما تقام في الخلوة وأنها عمل يظهر المسلم بتأديته عدة مرات في اليوم الواحد ويرى ملتزماً به دوم الأيام وفي كل الأحوال ، فلنتأمل هذا المعنى الأخير ..

---

(١) الفتح ٢٩ .

(٢) النساء ١٤٢ – ١٤٣ .

الصَّلاة استغراق دائم في عبادة الله

١ ـ توالي الصلوات إشاعة لروح الدين

إذا أسفر فجر يوم جديد وهبت الأرواح تتهيأ للغدو على الأعمال والأرزاق ، وإذا زالت الشمس وانصرف الناس رائحين عن اشغالهم منهم من يأوى إلى بيته للمقيل ومنهم من يتناول غداءه ثم يواصل السعي ، وإذا جنحت الشمس وانقطع حر النهار للقائلين وأنبت كلال العمل للواصلين ، وإذا غابت فأدبر النهار وأقبل الليل ، وإذا هم المرء بأن يسكن إلى فراشه ويختم حساب يومه ـ إذا كان كل وقت من ذلك وجبت صلاة من الخمس المفروضة : « إنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى المُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً[1] » .

وللمسلم إذا ابتغى الفضيلة أن يقطع زحمة نهاره بركعات

---

(١) النساء ١٠٣ .

الضحى وأن يقطع سكون ليله بالقيام وأن يتحرى أوقات النفل الأخرى يعمر يومه بالصلاة .

وقد أراد الله بعباده اليسر فاقتضت رأفته وحكمته أن يرفع الفرض عندما ينطلق الناس لأشغال المعاش وعندما يخلدون لراحة المنام وأن يجعل في أوقات الصلوات المكتوبة فسحة ترفع الحرج عمن تلح عليه الشواغل في بعض ذلك الوقت وتتيح له مجالاً يتوخى فيه بصلاته لحظة هي أجمع لخواطره وأخلى لباله.

والمسلم الذي يهتم لعبادته ويعظم أمرها يضبط الأوقات ويراقب مر الزمان ليحفظ صلاته لوقتها . وعلى هامش الانتباه للصلاة ، ومن جراء تلك المراقبة ، يعيش المسلم في يقظة دائمة مستشعراً مر أوقاته ومقدراً حساب زمانه ومستذكراً أنه مسئول عن طاقات حياته فيم أفناها وعن أيام عمره فيم قضاها . وشر ما يبتلى به الإنسان الغفلة السائبة تسلمه إلى تبديد أوقاته وإضاعة حياته من حيث لا يدرك أنها فرص تفوت ولا تتجدد أبداً . وكم من لاه يهلك وقته وحياته ولا يكاد يعي للساعات الضائعة حساباً أو يقدر ما فرط في سوانح الفرص وممكنات العمل الصالح والانتاج المثمر . ففي الصلاة وإنتظام أوقاتها المتوالية تنبيه إلى مراحل الوقت وهي تطوي أجل الحياة شيئاً فشيئاً .

وما تأخذ الصلاة من يوم المرء هو زكاة الوقت وحق الله الراتب من كل يوم ، ومن هذا الوجه تتضمن الصلاة معنى من زكاة المال من حيث أنها اقتطاع من رأس مال الحياة ومن مجال اكتساب الثروة وإنمائها . فأما من أعطى واتقى فهو الذي

يخرج زكاة ماله كما يحتسب لله من حياته كل يوم وقتاً ينتقصه من ساعات اللهو والارتزاق ، وأما من بخل واستغنى فذلك الذي يمنع زكاة ماله ويقبض يده عن الصدقات والذي يلتهي عن الصلاة إذا عز وقته بأغراض الكسب ومصالح المعاش أو إذا ألحت عليه دواعي اللهو ومتع الحياة . ومن بخل فانما يبخل على نفسه ويذهب بركات رزقه وتنمحق أوقاته ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون : « رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ[1] » ، « يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِماً قُلْ مَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ[2] » .

---

(١) النور ٣٧ – ٣٨ .

(٢) الجمعة ٩ – ١٠ .

والمبذر في المال أخو الشيطان ومثله الذي يبذر وقته ويستغرقه في غيبوبة الخمر ومتاهات اللهو فيفنى في الباطل حق الذكر والصلاة : « إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ[1] » .

وما يفوت المسلم من شيء من زاد الدنيا بزكاة الوقت فهو يعتاضه عند الله مضاعفاً وخير الزاد التقوى : « فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى » .

وأكبر الآثار لمراقبة الوقت وتزكيته بالصلاة مرات متوالية إنما هو إشاعة ذكر الله ووصله على مدار اليوم . ذلك أن الصلاة في جوهرها ذكر لله بما تشتمل عليه من تمجيده وتوحيده وما تدعو إلى طاعته وتقواه والتوبة إليه والتوكل عليه وتهدي إلى عبادته بالنية الصادقة والقول الطيب والعمل الصالح ، فهي

---

(١) المائدة ٩١ .

(٢) طه ١٣٠ - ١٣٢ .

أكبر سبب لذكر الله وتواليها أثبت الدواعي للدوام ذكره ليلاً ونهاراً: «وأقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيلِ إنَّ الحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ»[1] «أتْلُ مَا أُوحِيَ إلَيْكَ مِنَ الكِتَابِ وَأقِمِ الصَّلاةَ إنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أكْبَرُ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ»[2]، «قَدْ أفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى»[3].

ويترتب على ما تقدم أن الصلاة بتواليها فرضاً ونفلاً وتخللها لأوقات اليوم جميعاً واتصالها بأعماله كلها توحي إلى المصلي بأن الحياة كلها – مهما كانت صروفها – مجال لذكر الله أو مسرح للتدين وأن ليس التدين نشاطاً يؤخر لوقته المخصوص بالقداسة ويتحلل منه المرء في سائر أوقاته ولا الحياة شرك بين التجرد لشأن الله والتفرغ لأغراض الدنيا، لأن الناس لا يجعلون لدينهم وقتاً أو موسماً مخصوصاً إلا جعلوا ما سواه لغيره. ومهما تكن الأوقات التي يتحينها العابد للاجتهاد في الذكر ونفل الصلاة فإن الصلوات الخمس والنوافل الراتبة تنتشر في اليوم كله وتجاور شتى الأعمال اليومية التي يتوخى بها الإنسان لأول مرة أغراض الدنيا، فإذا تزاوجت شعائر

---

(١): هود ١١٤.
(٢) العنكبوت ٤٥.
(٣) الأعلى ١٥.

العبادة مع صروف الحياة سرت في هذه من تلك روح الدين ومعانيه .

فالصلاة وظيفة تعبد محض توقظ في المصلي بالضرورة مشاعر الدين الخالصة فإذا أحاطت طوال اليوم بأعمال الإنسان أفاضت عليها من روح التعبد ، والمصلي الذي لا ينفك يومه في ذكرى تتجدد بالتوالي بمعاني دينه يقبل على سائر شئونه بتلك الذكرى فيؤسس أعماله جميعاً على نية خالصة مبتغياً بها وجه الله . ولولا توالي الصلوات لبعد بالإنسان العهد وطالت الفترة فادركه النسيان والغفلة وشغلته الهموم والمصالح العاجلة التي تكتنف أعماله اليومية ولتقلب في شئون حياته لا يعي إلا بأغراضها السطحية ولا يعلم إلا ظاهراً من الحياة الدنيا .

فاختلاط الصلاة بأعمال اليوم التي لا تحمل معنى الدين لأول وهلة يبسط معنى العبادة فيها وينبه إلى أبعادها الدينية وإلى عنصر الإبتلاء والمسئولية فيها . ومتى ما باشر الإنسان أعماله كلها بهذا الوعي انصلحت نياته ومقاصده واستقامت مآخذه ومسالكه لأنه يجعل من ضميره رقيباً على تكييف غاياته وضبط وسائله بمعايير الأخلاق وقيم الدين ، وتصاحبه تلك الحالة طوال يومه ثم تدوم معه على مدى الأيام .

وتتصل الصلاة من هذا الوجه بوظيفة الذكر . فالاذكار المأثورة عن مختلف الأعمال والظروف إنما تهدف إلى إحياء الوعي الديني وبثه في الحياة . فالمسلم إذا سمى الله عند الشروع

في أعماله وحمد الله إذا فرغ منها واستغفر ربه أو دعاه عند الحوادث إنما يوقظ من شعوره الروحي ويجدده حتى يغمر أعماله وأحواله جميعاً بمعنى الدين ويجعل من حياته كلها عبادة لله ، فهو — فيما يواجه صروف الدنيا ويقضي فيها شئونه المعتادة يزكي نفسه ويطهرها ويكسب الحسنات ويتخذ من كل عمل صدقة إذ يأتي المباح بنية العبادة ويكف عن المحظور بتقوى الله .

وما يكون لبشر بالطبع أن يبلغ هذه الحالة الكاملة فيظل في أوقاته جميعاً ذاكراً غير غافل ويلوم عمره كله موصولاً إلى ربه مشدوداً إلى حبل العبادة ، ولذلك ما جعل الله في الدين من حرج ولم يشرع الفرائض إلا في فترات معلومة لضمان الحد الأدنى من شيوع روح الدين في الحياة ثم وصى فيما وراء ذلك بنفل العبادات وندبها ليرتقي في مسالكها السابقون والمقربون كل إلى مقامه المعلوم .

وقد وضعت سائر الشعائر التعبدية على هذا النمط ليأخذ كل مسلم بحظه من دوام ذكر الله . فالصوم عبادة شهر في كل عام يتجرد فيه المسلم من طعامه وشهواته طول النهار ويلقى من ذلك تربية على الصبر وتجربة في الحرمان ويعيش في فيض من ذكر الله وتقواه شهراً ينبغي أن يبقى أثره بقية الحول ولكنه يجدد ذلك الأثر تطوعاً بصيام أيام معلومة من كل أسبوع أو من كل شهر أو من كل عام . والحج عبادة تحيي خامل الشعور الديني بزيارة إلى بيت الله وتعهد مناسك

الحرم واقتفاء آثار إبراهيم رائد الحنيفية واتباع سنة خاتم النبيين ومشاهدة وفود المسلمين من أقطار الدنيا ، وتلك شحنة ضخمة من روح الدين فرض على المسلم المستطيع مرة في العمر ويتعرض لها إن شاء كل عام نفلا ويستزيد منها متى ما تيسر له بالعمرة والطواف . والزكاة صدقة تطهر من يخرجها وتزكيه فضلاً عن اسعاف الفقير وإذا كانت واجبة كل عام فإن أبواب الرحمة مفتوحة أبداً لمن أراد أن يتطوع بالصدقات ويقرض الله قرضاً حسناً . أما الأذكار فجلها فضيلة ميسرة للراغبين ولذلك كان المأثور منها أفشى في أوقات المسلم وألصق بحياته .

وتتصل الصلاة مع سائر هذه العبادات في تجديد الوعي والذكر المتواصل ، ولكنها بفرضها – فضلاً عن نفلها – تتعاقب في اليوم الواحد خمس مرات . فهي من حيث تواليها أوسع أثراً في حياة المسلم من الحج والصوم والزكاة ، وهي من حيث أركانها أملك للنفس وأعمق أثراً من الأذكار والآداب التعبدية . ولذلك فضلت الصلاة على سائر الشعائر بفضلها في نشر معنى العبادة بل لأنها تضمن معنى من كل عبادة أخرى كما يتبين في مواضع من هذا الكتاب . ولمزيتها تلك كانت الصلاة في الدين أول الفرائض العملية وأكبرها ، ولجلال أثرها على عمل المسلم وحياته يذكرها القرآن كثيراً ضمن الأعمال الصالحة وفي رأسها[1] .

---

(١) تجد ذلك واضحاً في سورة المؤمنون ١–١٠ وسورة المعارج ١٨–٣٥ . الخ .

وتؤكد الصلاة – واخواتها – بإشاعتها روح الدين في الأعمال وإحالتها الحياة كلها إلى عبادة – تؤكد مبدأ وحدة الحياة الذي يقوم عليه التصور الديني في الإسلام .

وكل الدين ينبغي أن ينتظم الحياة بشتى وجوهها ويشمل جميع شئون الإنسان ، إذ ما يكون له – من حيث أنه توجيه من الله لهداية البشر – أن يتير لهم جانباً من الحياة ويتركهم وراء ذلك في ظلمات الضلال ، ولا يكون له – من حيث هو توجه من العباد لعبادة الله – أن يعني التزاماً بالطاعة في جانب وتمرداً في سائر الجوانب . ولكن المعتقدات الدينية الوضعية مطبوعة بطبيعة الفكر البشري المحدود بظروف البيئة وحاجاتها فهي تقتصر تبعاً لذلك على بعض من شئون الحياة . أما الديانات التي نشأت عن أصل وحي فقد ضاعت أصولها وتطرق إليها الوضع وكانت سنة التاريخ الغالبة في ذلك أن يتمثل الدين في رجال الدين الذين يحمدون به لجهلهم ويقلصون مداه أو يبغون به لأغراضهم فينتزع الناس التحرر من سلطان الإستغلال ، وقد يعزى التحلل من شمول الدين وقيوده إلى جنوح الناس إلى عاجل مسرات الحياة الدنيا أو نزوع ذوي السلطة السياسية والاقتصادية إلى التمكين لأهوائهم وظلمهم . ومهما يكن فإن الأمر انتهى بالديانات إلى أن تحاصر في الطقوس والأشكال وتصرف عن أمهات شئون الحياة إلى الشئون الشخصية وينعزل بها أهلها إلى حدود جدران المعابد بينما يعربد الناس في عرض الحياة بلا ضابط ولا دليل ويستبد أصحاب السلطة بالسيادة والتشريع.

والصلاة وقاية من هذا الإنحراف في الإسلام الذي يحفظه من التمزق خلود أصوله وبناء تعاليمه كلها على مبدأ وحدة الحياة الدينية . والذي يعنينا هنا هو الحكمة في اختلاط الصلاة بأعمال اليوم ، وسنرى في الصلاة من وجوه أخرى تأكيدات لهذا المبدأ بل سنرى كيف تحتوي على معان من جميع العبادات الأخرى وإيحاءات من التعاليم الاجتماعية والسياسية . فهي مدرسة تربوية شاملة، ولا تمثل وحدة الدين من حيث الشمول فحسب بل تصور اتساق معانيه وتوافق تركيبه الداخلي ووحدة اسراره الجوهرية التي تتجلى في عباداته كما تظهر في معاملاته وتبرز في آدابه كما تبدو في تشريعاته .

ولنقرأ في ذلك كلمة من كتاب الله فيها اشهاد لعقيدة الإسلام حيث يسلم الإنسان نفسه وحياته جميعاً لله ، ولنر ما هو موضع الصلاة في تلك الكلمة : « قُلْ إنَّ صَلاتي ونُسُكي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لله رَبِّ العَالَمِينَ لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ المُسْلِمِينَ[1] » .

٢ ــ دوام الصلاة ودوام الذكر والعمل

كما يتوالى فرض الصلاة ونفلها على المسلم على مدار يومه تدوم عليه طوال عمره وعبر كل ظروف الحياة ــ لا يرفعها عنه عذر من مرض ولا مانع من سفر ولا شاغلٍ من خوف

---

(١) الأنعام ١٦١ ــ ١٦٢ .

ولا اعتبار لظروف المكان ، والذي يرتفع عنه في كل ذلك إنما هو حرج أدائها على وجهها وبنفلها المعتاد ولكن أصلها يظل فرضاً ثابتاً في كل حال .

فاينما انتقل المسلم لازمته فريضة الصلاة يؤديها حيثما تيسر له . والمصلي مسجد صالح في كل بقعة طاهرة من الأرض وفي كل منزل ومقام ، وهذا الحكم من الخصائص التي أعطيها النبي ﷺ دون غيره : « جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل »[1] .

وفي هذا الحكم تحقيق وتأكيد لشمول الدين وإحاطته ، فالأرض كلها معبد لله ومسرح للدين — لا تنحصر الصلاة في البيع والمحاريب ولا تنفصم شخصية الإنسان فتراه عابداً متبتلاً بين جدران بيت الله فإذا خرج عربد به هواه كأنما خرج من حدود سلطان الله ، وإنما يدوم المرء على حال واحد من عبادة الله كيفما تقلبت به المكان ويتقي الله حيثما كان .

وإذا أعجز المسلم الماء فلم يتيسر له الطهور المعتاد وخاف فوت الصلاة أو إذا تعذر عليه استعمال الماء بسبب المرض كان له أن يتيمم صعيداً طاهراً ويتهيأ للصلاة بلا حرج : « وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ

---

(١) الشيخان .

مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ»[1]

وإذا أقعدة المرض عن إتمام الصلاة عن قيام فلا اعفاء له منها وإنما تجب عليه عن اعتماد أو جلوس أو إيماء ـ على قدر مبلغ العلة منه ـ حتى لا ينفك أبداً عن ذكر الله : « صل قائماً فإن لم تستطع فقاعداً فإن لم تستطع فعلى جنب (وإلا فأوم) »[2].

ومن كان على سفر فاضطربت أحواله بذلك أياماً قصرت صلاته تخفيفاً حتى لا يشق عليه تعهد الصلاة بالاقامة التامة وليكون موصول الحبل بالله أينما حل وارتحل .

حتى ساعة القتال لا تسقط عن المسلم الصلاة ، بل هي ساعة تزداد فيها حاجته إليها يستعين بها على الصبر في مقام الخوف ويستمد منها القوة على الجهاد ، ولذلك عنى القرآن بصلاة الخوف وفصلها تفصيلاً : « وإذا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوّاً مُبِيناً ، وإذا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فإذا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ

---

(١) المائدة ٦ .

(٢) البخاري والنسائي .

أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (١)» . وبذلك يتم التوفيق بين مقتضيات الحذر وبين ضرورة المداومة على الصلة بالله . فإذا كانت مناهضة الحصون ولقاء العدو كان الحكم ما روى البخاري عن الأوزاعي : «إن كان تهيأ الفتح ولم يقدروا على الصلاة صلوا إيماء كل امرىء لنفسه فإن لم يقدروا على الإيماء أخروا الصلاة حتى ينكشف القتال أو يأمنوا فيصلوا ركعتين فإن لم يقدروا صلوا ركعة وسجدتين وإن لم يقدروا فلا يجزيهم التكبير ويؤخرونها حتى يأمنوا» .

وكما يثبت مبدأ الصلاة برغم تقلب أحوال المسلم يثبت كذلك على اختلاف أحوال المجتمع المسلم ، فينتظم فرض الصلاة مراحل تطور ذلك المجتمع من عهد الدعوة المستضعفة إذ تدعو الصلاة للصبر الجميل — إلى عهد الدولة العزيزة — إذ تأمر الصلاة بالمعروف وتنهى عن الفحشاء : «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ

(١) النساء ١٠١ — ١٠٢ .

مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً »[1] « الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ المُنْكَرِ وَلِلهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ »[2] .

ودوام الصلاة واطرادها على اختلاف الأحوال والأزمنة صفة تميزها عـــن سائر التكاليف العملية ، فعامة التكاليف ـ سوى أركان الإسلام الأساسية : الصلاة والزكاة والصوم والحج ـ منوطة بمصالح معينة تدور معها فتثبت برجاء المصلحة وترتفع بانتفائها أو نفادها أو رهينة بعلاقات الناس تجب في أوضاع معينة وتسقط بالاعفاء وغيره . أما أركان الإسلام المتقدمة فهي واجبات عينية وحقوق لله لا تتخلف ، ولكن الصلاة من بين تلك الأركان تتميز بصفة الدوام لأن الصوم لا يجب إلا للمستطيع والحج لا يلزم إلا من وجد إليه سبيلاً والزكاة لا يخرجها إلا من ملك النصاب ، أما الصلاة فلا تسقطها أعذار الطاقة وإنما تخفف أركانها لرفع الحرج ويبقى أصلها لئلا تتخلف معانيها الجليلة .

فهي بهذا الدوام حد أدنى من الالتزام العملي الدائم يتحمله المسلم بعد شهادة الإيمان ، وهو يؤديها زكاة يومية كما قدمنا مهما عز وقته بمشاغل الدنيا وبصوارف اللهو ويتعهدها سنة

---

(١) النساء ٧٧ .

(٢) الحج ٤١ .

معتادة طول عمره تذكرة وصلة بربه وتعبيراً عن التدين والعبادة على مستوى ثابت لا ينقص إذا لم تزده تكاليف دينية أخرى تأتي على قدر طاقة الإنسان وحسب ظروفه .

والحكمة الواضحة في فرض الصلاة على هذا النحو الذي لا يتوقف هي ضمان استمرار آثارها العظيمة في كل حال من أحوال المسلم وعبر ظروف الحياة . فإذا كان في الصلاة ما يصرف عن المرء سيّء الأخلاق ويجلب إليه مكارمها وما يربيه على الصبر ويزوده بالطاقة للعمل وإذا كان فيها على وجه الإجمال ما يزكي صلة المرء بربه ويحسن صلته بالمجتمع فإنها جديرة بألا تتراخى حتى لا تضعف آثارها وألا تنقطع حتى لا تنبت بركاتها وأن تدوم وتطرد في كل حال معراجاً متاحاً وميقاتاً ثابتاً لا يخلفه العبد مع ربه يجده تجاهه حيثما كان ولتكون قرة عين المسلم يلتمس فيها العظة البالغة في كل حال والهداية المبينة في كل موقف والطمأنينة التامة في كل نازلة ويجد فيها الوفاء الشافي بسائر الحاجات والظروف . ولذلك جاء أمر الله بالمحافظة على الصلوات والمداومة عليها في كل الأحوال — عند الأمن والخوف وفي السراء والضراء ولدى الحل والترحال ليقوم المسلم دهره أبداً ذاكراً لا تتمكن منه الغفلة ولا يستحوذ عليه الشيطان : « حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَاناً فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا

تَعْلَمُونَ ﴾[1] .

ومن النتائج التربوية للصلاة عند من يتعهدها ويتخذها سنة دائمة أنها تورث الإنسان روح المواظبة على كل واجب والمداومة على كل عمل . والمرء قد يكون عريض الهمة طويل الأمل ولكنه ما يقبل على تحقيق عزمه حتى يثقل عليه الأعباء والتكاليف أو تلهيه الخواطر الطارئة فتفتر عزائمه وتنقطع جهوده فتتخلف الإنجازات وتخيب الوعود ، ولكن المصلي يستفيد من موالاة الصلاة معان في الوفاء للواجب في وقته وفي تعهده بعزم لا يفتر ولا ينقطع على تعاقب الأيام ؛ فيتربى بذلك على المثابرة في سائر أعماله وعلى وصل جهوده في الحياة حتى تؤتي ثمارها .

وإن في التخفيف الذي جاء في فرض الصلاة من خمسين إلى خمس وفي أحكامها عند المرض والسفر وفي تيسير شروطها من حيث الطهارة واللبس والمكان لمعين للمسلم على المداومة عليها ومرشد له إلى أن العمل الميسر القليل إذا كان موصولاً خير وأكثر بركة من العمل الكثير إذا كان مقطوعاً ، وقد سئل النبي ﷺ فأجاب : « أي العمل أحب إلى الله ؟ قال أدومه وإن قل »[2] .

---

(١) البقرة ٢٣٩ .

(٢) مسلم .

الصَّلاة تَوَجُّهٌ إلى الله وَإلى القِبلة الواحِدة

١ ـ التوجه إلى الله

تقتضي أحكام فقه القبلة أن يولي المصلي وجهه شطر المسجد الحرام: «قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المَسْجِدِ الحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ..»[1]. فعليه إذا هم بالصلاة ألا ينحو بها حيثما اتفق بل يتحرى بالسؤال والاسترشاد أو بالنظر والتأمل جهة القبلة من موقفه فيلتزمها بوجهه وجسده ويقابلها بباطن كفيه عند التكبير ويومىء إليها بركوعه وسجوده ويستقبلها ساجداً برؤوس أصابعه وأطراف رجليه ويجلس مشيراً إليها بكفيه وبابهام رجله اليمنى. ويلتزم هذا التوجه الدقيق الذي تسخر له الأعضاء والأطراف طوال

---

(١) البقرة ١٤٤ .

الصلاة فلا ينحرف عنه بجسده ولا يلتفت بوجهه ولا يزوغ ببصره .

والقبلة المسجد الحرام الذي أسس أركانه إبراهيم عليه السلام وطهره للعبادة هو أول بيت مبارك وضع للناس مركزاً لوجهة عبّاد الله وعلماً في الأرض يتيممه من يريد أن يجعل غايته الله وهدفاً واقعياً ينحو نحوه قاصد وجه الله .

والتزام القبلة بهذا المعنى إنما هو تمثيل ظاهر للتوجه إلى الله ولا يتم معنى الانتصاب بالجسد تجاه القبلة إذا لم يكن المصلي بذهنه متوجهاً إلى الله يتمثل نفسه واقفاً بين يديه مسلماً نفسه إليه لا يلتفت بجارحته كما لا يلتفت بوعيه عن الله .

وفي بعض صيغ دعاء الاستفتاح وهو أول ذكر يصاحب استقبال القبلة بعد التكبير ـ ما يعبر عن توجيه الأعضاء إلى الله بلا انحراف إلى جهة أخرى وعن اهداء العمل والعبادة إلى الله بلا انصراف إلى شريك آخر : « وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين .. »[1] .

فالذي يلتفت في الصلاة إنما يشيح بوجهه عن الله يجذبه عن ربه دعاء الشيطان كما روي عن عائشة : « سألت رسول الله ﷺ عن الالتفات في الصلاة فقال هو اختلاس يختلسه

---

(١) أبو داوود .

الشيطان من صلاة العبد »[1] . وإذا كانت الصلاة مناجاة لله فإن الله أغنى عن العبد من العبد إليه : « لا يزال الله عز وجل مقبلا على العبد وهو في صلاته ما لم يلتفت فإذا التفت انصرف عنه »[2] .

وإنما شرعت الصلاة لذكر الله ، فالذي يقيم وجهه صوب القبلة في الشكل الظاهر ولكنه يشرد عنها بذهنه ويطوف بخاطره طارتاً كل هموم حياته فإنه في حكم المنصرف عن الله لأنه غافل لا يحضر ذهنه بحضور الجسد ، وما طلب الله من العبد الصلاة إلا ليستقبله بذاكرته ووعيه الحاضر : « وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي »[3] .

٢ ـ استقامة الاتجاه على صراط الإسلام

القبلة التي يتحراها المصلي ويتوخاها بكل جسمه وبكل وعيه وخاطره خمس مرات في اليوم وأكثر رمز لغاية يتخذها المسلم وصراط مستقيم إليها يسلكه من حيث يقوم . والصلاة عبادة تتعاقب على المسلم في يومه فتحيل حياته عبادة وتذكره تذكيراً متوالياً بالتوجه إلى الله في كل الأعمال وبالتزام صراط العزيز الحميد في نهج الحياة كافة وبتسخير الجسم والنفس لطاعة الله الكاملة وبالتجرد له تجرداً مطلقاً لا إشراك فيه .

---

(١) البخاري .
(٢) أبو داود .
(٣) طه ١٤ .

وناسب لذلك أن يكون أوجب دعاء يتكرر في الصلاة هو الذي جاء في ختام الفاتحة بعد تقرير إخلاص التوجه إلى الله وحده : « إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ »[1] .

وفي تعود المصلي أن يتحرى القبلة ولا يتجه عفواً وأن يلتزمها بكل جوارحه ومشاعره لا ينحرف ولا ينصرف تربية للمسلم الصحيح أن يكون مشدوداً بحبل متين إلى غايته وثابتاً على الصراط المستقيم وأن يتحرى الاتجاهات ويتفكر في المناهج فيولي وجهه شطر الحق ولا يكون من المغضوب عليهم الذين يستيقنون حق القبلة الصحيحة ولكنهم يستكبرون عنها ويبغونها عوَجاً ولا الضالين الذين يتيهون بلا هدى صماً بكماً عمياً كالأنعام بل أضل سبيلاً .

وقد عدل الرسول ﷺ عن قبلة قريش في أول عهده ووافق توجه اليهود نحو بيت المقدس نظراً لأن أهل الكتاب أقرب إلى الهدى من مشركي قريش ولكنه بعد شهور في المدينة كان يقلب وجهه في السماء راجياً أن يرده ربه إلى قبلة إبراهيم الحنيف : « كان رسول الله ﷺ صلى نحو بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهراً وكان رسول الله يحب أن يوجه إلى إلى الكعبة فأنزل الله : قد نرى تقلب وجهك في السماء ..

---

(١) الفاتحة ٥ – ٧ .

فتوجه نحو الكعبة »[1] .

فالتزام قبلة الصلاة ليس منحى شكلياً لجسد المصلي وحسب ولكنه أيضاً توجه إلى الله بذهنه في كل وقت وهو بأثره في النفس اعتصام بالله غاية وبالإسلام ديناً وصراطاً .

ولذلك كان استقبال القبلة دليلاً وشعاراً لاتجاه المسلم الفكري والعملي — أو الديني بمجمل العبارة — ، وسمى لذلك أصحاب هذه الملة الذين يدينون دين الإسلام وينهجون طريقه : أهل القبلة : « من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم الذي له ذمة الله وذمة رسوله فلا تخفروا الله في ذمته »[2] . فبالقبلة خاصة يتأكد ما قدمنا في شأن الصلاة عامة من أنها سمة مميزة للذوي الاتجاه الديني الصحيح يدخلون بها في عداد المسلمين وأمانهم .

وفي القرآن ارتبط حديث قبلة الصلاة بحديث ملة الدين ارتباطاً وثيقاً مما يؤكد التوافق والتكامل بين استقبال قبلة الصلاة وانتهاج الإسلام طريقاً إلى الله .

ففي صدر سورة البقرة ورد ذكر طويل لليهود ولصنيعهم مع الأنبياء وفي ذلك القصص عبرة للمسلمين ألا يكونوا أمثالهم وأن يخالفوا غلوهم في سؤال رسولهم موسى من قبل ويجتنبوا اصطلاحاتهم في مخاطبة محمد ﷺ فما كانوا يضمرون للمسلمين إلا العداء والحسد بل كانوا يودون لو استوى معهم المؤمنون على الكفر .

---

(١) البخاري .

(٢) البخاري .

ثم يستطرد القرآن في مقالات اليهود والنصارى ودعواهم أن الجنة حكر لهم وإنما هي حقاً لمن أسلم وجهه لله واستقل عن ملتهم إلى ملة الإسلام : «وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَالَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ»[1] وذكر الله في تلك الآيات فعل النصارى بالمسجد الأقصى أولى القبلتين إذ منعوا فيه حرية الدين لغيرهم بغياً وعصبية وعقب بأنه هو تعالى مالك الآفاق جميعاً يولي المصلين حيثما شاء وثم يجدون وجه الله[2] ثم ذكر إبراهيم الذي استن الإسلام الحنيف – فبدله من بعده أولئك – والذي رفع أركان البيت الحرام بمكة وطهره حراً لكل طائف وعاكف ومصل من أهل الإسلام . ثم زكى الله تعالى في ذكره ملة إبراهيم وسنته القائمة على التوحيد الخالص والتي بقيت وصية في ذريته . ومضت الآيات توصي الرسول ﷺ والمؤمنين باتباع تلك الملة شرعة ومنهاجاً وبالإضراب عن الاتجاهات التي ابتدعتها أهواء اليهود والنصارى والتي يدعون إليها المسلمين ويتنازعونهم بها : «وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا

---

(١) البقرة ١٢٠ .

(٢) الآيات ١١٤ – ١١٥ من سورة البقرة .

أُنزِلَ إلى إبْرَاهِيمَ وَاسْمَاعِيلَ وَاسْحَقَ وَمَا أُوتِيَ مُوسى وَعِيسى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقَ بَيْنَ أحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْن لَه مُسْلِمُونَ . فَإنْ آمَنُوا بِمِثلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَد اهْتَدوا وإنْ تَوَلَّوْا فَإنَّمَا هُمْ في شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُم الله وَهُوَ السَّمِيع العَلِيم صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أحْسَنَ مِن اللهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ »[1].

فملة الإسلام وجهة إبراهيم هي المرجع الذي ترد إليه وتقاس صحة الاتجاه ولون الإسلام هو صبغة الله وما أحسن منه من بين الألوان العقدية والمذهبية .

وهكذا حسم النزاع في الملة والوجهة والمذهب فتلته قصة النزاع على قبلة الصلاة وجدير بمن اختار ملة إبراهيم أن يختار كذلك قبلته وإن شوش عليه المنازعون: «سَيَقُول السُّفَهَاءُ .. من الناس مَا وَلاَّهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمْ التي كَانُوا عَلَيْهَا .. »[2] . وجدير بمن كان مذهبه قياس المذاهب وصبغته أحسن الأصباغ ومن كان بذلك وسطاً شهيداً على الناس [3] أن يستقل عن أهل المذاهب الباطلة والأصباغ الزائفة وأن يتحرى لصلاته قبلة غير قبلتهم وما عسى تلك أن تكون إلا نحو البيت المطهر الذي بوأ الله لإبراهيم مكانه من آفاق بعيدة مثلما هداه إلى الملة

---

(١) البقرة ١٣٥ - ١٣٧ .

(٢) البقرة ١٤٢ .

(٣) الآية ١٤٣ من سورة البقرة .

الحنيفية والدين القيم بعد بحث واسع في ملكوت السموات والأرض
« قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ .. »[1] . أما أهل الكتاب فإنما نزاعهم في ذلك عن جحود ولا سبيل إلى اقناعهم فليستقل المسلمون عن أهوائهم وليمض كل أحد في اتجاهه فإن الله جامعهم يوماً ليتحملوا المغبة والجزاء : « وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللهُ جَمِيعاً إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ »[2] .

ثم تمضي آيات البقرة فتثبت المسلمين على قبلتهم واتجاههم الرشيد لا يخشون نزاع الظالمين من أهل الكتاب وليذكروا الله ويشكروه ويتقووا على مكائدهم بالصبر والصلاة. ريثما يأتي أمر الله إذ يتصاعد النزاع فيصبح قتالاً ويكون الإبتلاء والشهادة في سبيل الله .

وقبل استئناف القول في جحود أهل الكتاب وكتمانهم للبينات تعترض آية تناسب حديث البيت الحرام الذي بناه إبراهيم قبلة للصلاة ومركزاً للحجاج والعمار فتذكر إتمام الحج والاعتماد عند ذلك البيت بشعيرة السعي بين الصفا والمروة ويسوقنا هذا إلى ما في الصلاة من شمول لمعان من عبادات

---

(١) البقرة ١٤٤ .
(٢) البقرة ١٤٨ .

أخرى . وقد ذكرنا من قبل أنها تشترك مع الزكاة من حيث أنها صرف لجزء من وقت الإنسان وجهده في سبيل الله . ووقت الإنسان وجهده هما رأس ماله المنتج ، وهي أيضاً تشترك مع الحج ففيه التوجه إلى الكعبة واتخاذها محوراً يطوف حوله المطوفون يجددون بمناسكه ذكرى إبراهيم ويحيون سنته وفي الصلاة كذلك توجه إلى الكعبة يقوم نحوها المصلون من بلادهم فهم حولها من بعيد متفرقون على محيط الأرض ولكنهم مشدودون – كل من قطره – إلى محور واحد هو بيت الله .

والتوجه الدقيق إلى القبلة يؤدي بالمسلم إلى أن يتوخى العدل فلا يحيد ولا يميل ويلتزم القسط فلا يخسر الميزان في شيء من علاقاته الاجتماعية . ورغم دوافع الهوى التي تحيط بالإنسان وميل العواطف التي تتنازعه فإن الصلاة تعلم المسلم الاستقامة في استقبال بيت الله والتجرد في التوجه إلى الله فتربيه بذلك على الاستقامة في أحكامه ومواقفه جميعاً وأن يكون منصفاً لا يظلم ولا يميل وشاهداً لله قائماً بالقسطاس – ومن ثم اتصلت معاني القسط بمعاني القبلة والتجرد والاخلاص : « قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ .. »[1] .

٣ – توحيد أهل القبلة

تترتب بعض الآثار العملية الهامة على التزام القبلة وما

(١) الأعراف ٢٩ .

يقترن به من انتهاج الملة الحنيفة بغير انحراف ، وسلوك صراط الله المستقيم بغير إشراك . ففي ذلك صب لجهود الفرد والأمة كلها في وجهة واحدة ــ الأمر الذي يتصل بمعاني المثابرة والثبات التي ذكرنا قبلاً ، أن الصلاة تنميها في النفس بتواترها ودوافعها

فالتزام القبلة المذهبية الواحدة تسلك أعمال المرء كلها وجهود حياته أجمع في اتجاه واحد وتجعل مساعيه كلها في طريق واحد يتقدم فيه شوطاً بعد شوط فيبلغ بإنجازاته أبعد الغايات لا سيما إذا تعلم من الصلاة أيضاً اطراد العمل ووصله بلا انقطاع .

والذين تتفرق جهودهم بددا ، وتضيع أشتاتاً ، ولا يبلغون مقصداً أبداً ، هم الضالون الذين يسيرون في الدنيا خبط العشواء ينقلبون كل حين من اتجاه وطريق إلى اتجاه وطريق . فلا يقطعون في هذا ولا ذاك شوطاً بعيداً، وتتنازعهم الأهواء المختلفة التي تتغير مع صروف الزمن وظروف الإنسان فتمحق مسعاهم في الحياة .

وهذا هو شأن المذاهب الوضعية جميعاً لأنها جزئية المضمون ترادف على الفرد الواحد ويتعلق كل واحد منها بمجال من مجالات حياته فتتركه حائراً مضطرب الدوافع يعمل في حياته الخاصة بنهج يباين ما ينهج في علاقاته العامة ويتخذ لاقتصاده موازين تخالف ما يزن به سياسة حكمه ، وهكذا تضطرب قيمه وتتناسخ فيتمزق قلقاً وشللا . أو تتعاقب عليه المذاهب

فيخلص لبعضها حيناً من الدهر ثم تهب رياح التغيير لعصر آخر فينحرف معها فترده على عقبه أو يمثل به إلى منحى آخر ويذهب ماضي جهوده أدراج الرياح ، وهكذا لا يجد المرء مع تعارض الأهواء الظرفية وتقابها استقرار الذهن ولا طمأنينة النفس ولا يحقق منشوده في الحياة .

وليس سواء من يخبط العشواء ومن يستبين طريقه رشداً : « أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبّاً عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيّاً عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ »[1] . والذي يعوق مسار ابن آدم على هذا الصراط المستقيم ويصرفه عن قبلته الواحدةفيتجاذبه ويبدد مسعاه إنما هي أهواء يزينها إبليس : « .. قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ »[2]..

وإذا كان من أثر القبلة الواحدة أن تجمع للإنسان شتات نفسه وتنظم له أشواط عمله في مسلك واحد فإن أثرها الأكبر من هذا الوجه هو أنها توحد أهل القبلة جميعاً وتصهرهم في أمة واحدة ، وما سميت أمة إلا لأنها تتيمم جهة واحدة .

فالمسلمون في مشارق الأرض ومغاربها وذات الشمال فيها وذات الجنوب ينحون بأجسامهم ومشاعرهم تجاه مركز واحد

---

(١) الملك ٢٢ .

(٢) الأعراف ١٦ - ١٧ .

يستقبلونه بتمام التجرد مرات في كل يوم ريثما يجتمعون بشخوصهم في رحابه استجابة لمؤذن الحج مرة في العمر أو العام . وهذه الوجهة المشتركة التي تذكرهم بها الصلاة هي من سر رابطتهم الوثيقة ومما يعصمهم من أن يتفرقوا حسب الأهواء فيصبحوا نهباً لتيارات المذاهب الوضعية ينزع كل فريق منهم إلى اتجاه : « فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ، مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ »(١).

ومن حيث يقوم كل مسلم نحو القبلة يمتد الصراط المستقيم فإن لزمه المسلمون جميعاً جمعهم موكب واحد سائر إلى الله وإن أغوتهم دعوات الباطل تفرقوا عن الشعاب فتبدد شملهم وضلت بهم السبل عن سبيل الله : « وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ »(٢) .

وفي صلاة الجماعة معان أخرى توكد وحدة أهل القبلة ونتعرض لها في موضعها إن شاء الله .

وتولية الوجه في الصلاة إلى بقعة بعينها والتوجه بالذهن

---

(١) الروم ٣٠ – ٣٢ .

(٢) الأنعام ١٥٣ .

إلى الله والتجرد له في ذلك عن كل ميل أو التفات ومرجع المسلمين جميعاً إلى مركز واحد ـ كل ذلك يتصل بمعنى التوحيد واهداء العبادة والعمل كله لوجه الله، لايعدل العابد عنه إلى شريك ولا يجد من دونه ملتحداً.وقد تقدمت آيات الروم تقابل بين أصحاب الدين القيم وبين المشركين وما هم فيه من عزة وشقاق كما تقدمت آيات الفاتحة يستهدي بها المصلي الصراط المستقيم عقب إعلان التوحيد الخالص .

والصلاة بذلك وبكثير من أحكامها الأخرى تهدي إلى التجرد والاخلاص لرب العالمين وذلك مانبسط القول فيه بعد .

الصلاة تمام التجرد والإخلاص لله

١ ـ التجرد لمناجاة الله

ينبغي للمصلي وهو قائم بين يدي ربه أن يتوجه إليه في تجرد كامل فلا يأتي عملاً ولا قولاً إلا ما كان من شأن الصلاة وهذا الحكم يكمل ما سبق من واجب استقبال القبلة فهناك التزام القبلة واستشعار التوجه إلى الله وهنا انصراف عن دنيا الناس بأقوالها وأفعالها وإقبال على الله بمنجى عن العالمين .

ولم يكتمل شرع الصلاة حتى حررت من كل شواغل العمل والكلام وصارت قنوتاً خالصاً لله فقد روى زيد بن أرقم : « ان كنا لنتكلم في الصلاة على عهد النبي ﷺ يكلم أحدنا صاحبه بحاجته حتى نزلت حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين ، فأمرنا بالسكوت »[1] . وتوقف

---

(١) الشيخان .

الرسول ﷺ عن رد السلام أثناء الصلاة وقال : « إن في الصلاة لشغلاً »[1] . وفي فقه الصلاة تفصيل لما يبطل الصلاة من كثير الكلام والعبث بالجوارح ولما هو عفو من اليسير ولما هو جائز لصلته بأمر الصلاة .

والإمساك عن شواغل الحياة وعلاقاتها بضبط اللسان والجوارح إلا عن ذكر الصلاة وأفعالها إنما هو تعبير عملي عن التجرد النفسي لله والإنشغال بمناجاته عن كل خاطر وهم ، وتحقيقاً لهذا التفرغ المطلوب كان على المصلي أن ينفي عنه كل مرئي أو مسموع أو محسوس من شأنه أن يختطف انتباهه أو اهتمامه ويصرفه عما هو فيه فيسلمه إلى الغفلة عن الله والإقبال على ما سواه . فمن ذلك كل محسوس يحرك حاجات الجسد : « إذا حضر العشاء وأقيمت الصلاة فابدأوا بالعشاء »[2] ، « لا صلاة بحضرة الطعام ولا هو يدافعه الأخبثان »[3] . ومنه المشاهد التي تلهي المصلي من ثوب أو فراش ملفت : « صلى النبي ﷺ في خميصة لها أعلام وقال شغلتني أعلام هذه فاذهبوا بها إلى أبي جهم وأتوني بأنبجانية أبي جهم »[4] ، « كان قرام لعائشة سترت به جانب بيتها فقال لها النبي ﷺ أميطي عنا قرامك هذا فإنه لا تزال تصاويره تعرض لي في صلاتي »[5] . ويندرج في هذا

---

(١) البخاري .
(٢) الشيخان
(٣) مسلم .
(٤) الشيخان .
(٥) البخاري .

المعنى السترة يجعلها المصلي تلقاء وجهه وتأثيم المرور بين يديه[1] وينبغي كذلك صرف الشواغل النفسية : « إني لأدخل في الصلاة أريد إطالتها فاسمع بكاء الصبي فأخفف من شدة وجد أمه به »[2]

وإذا جرد المصلي محيطه من كل محسوس قد يفتنه في صلاته فإن عليه كذلك أن يفرغ همه من شواغل الدنيا كما قال أبو الدرداء : « من فقه المرء إقباله على حاجته حتى يقبل على صلاته وقلبه فارغ »[3] .

وعلى المصلي من أجل ذلك أن يتحين بصلاته ظرفاً يكون بحالته الذهنية أصفى وأكثر طمأنينة لعله يكون أشد حضوراً بذهنه وانتباهاً إلى شأن مناجاة الله وأكثر قنوتاً وتجرداً : « إذا نعس أحدكم وهو يصلي فليرقد حتى يذهب عنه النوم فإن أحدكم إذا صلى وهو ناعس لايدري لعله يستغفر فيسب نفسه[4] ومن هدى النبي ﷺ أنه دخل المسجد فإذا حبل ممدود بين الساريتين فقال ما هذا الحبل ؟ قالوا هذا حبل لزينب فإذا فترت تعلقت به فقال النبي ﷺ : لا . حلوه ليصل أحدكم نشاطه فإذا فتر فليرقد »[5] ـ وتحقيقاً لهذا المعنى كذلك يشترط الوعي عند أداء الصلاة : « يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم

---

(١) الشيخان .
(٢) الشيخان .
(٣) البخاري .
(٤) البخاري .
(٥) الشيخان

سُكارى حتى تعلَمُوا مَا تَقُولُونَ »[1] .

ويتأكد هذا التوجه والتجرد الذي يعبر عنه المصلي بسكونه ووقاره ويستشعره بحضورذهنه ويتوخى له الظروف والأحوال – يتأكد بجانب إيجابي من أفعال الصلاة وأزكارها . فمن الأفعال نصب الجسم والأطراف إلى القبلة كما تقدم، ومن الأزكار فاتحة الكتاب يناجي بها العبد ربه فيتجاوب الرب : « قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل فإذا قال العبد : الحمد لله رب العالمين قال الله تعالى : حمدني عبدى ، وإذا قال : الرحمن الرحيم ، قال الله تعالى : أثنى علي عبدي ، وإذا قال : مالك يوم الدين ، قال : مجدني عبدي ، فإذا قال : إياك نعبد وإياك نستعين ،قال : هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل »[2]. ثم سائر القرآن يقرؤه المصلي فيطرق فيه معاني التجرد والإخلاص كل ذلك ما لم يكن الذكر والقرآن مجرد أصوات تجري على اللسان كالهذيان والذهن غائب شارد بل ما لم يكتف القارىء بالمرور على سطح المعاني بفهمه وإنما تعمق فيها تأملاً وتدبراً وازداد بها إيماناً بوحدانية الله وقنوتاً له عما سواه .

وقد يجتهد المصلي فينفي عن محيطه كل محسوس ومشهود ويعمل فكره في معاني الذكر ثم لا يملك إلا أن ينفلت من إطار نجوى ربه فترد عليه الخواطر أشتاتاً من شئون الحياة ويجول فكره في هموم يومه ويسرح بعيداً عن استشعار حضرة الله

---

(١) النساء ٤٣ .

(٢) مسلم .

وإنما مرد ذلك إلى شدة التعلق بأغراض الدنيا وإلحاح الحاجات والأوطار التي تستولي على الفؤاد. فإذا خلا المرء عن علاقات الناس وحاول الإقبال على ربه انجذبت خواطره إلى دنياه فلبثت في حبائلها التي تتشعب ولا تكاد تنتهي وبذلك يسرق الشيطان من صلاته أو يستغرقها جميعاً .

وما أحسن فقه أبي حامد الغزالي في معنى التجرد لله في الصلاة . إذ أفاض في اشتراط حضور القلب فخلص إلى «أن حضور القلب هو روح الصلاة وأن أقل ما يبقى به رمق الروح الحضور عند التكبير فالنقصان منه هلاك . وبقدر الزيادة عليه تنبسط الروح في أجزاء الصلاة وكم من حي لا حراك به قريب من ميت . فصلاة الغافل في جميعها إلا عند التكبير كمثل حي لا حراك به نسأل الله العون » . ثم استأنف الغزالي حديثه يقترح دواء لدفع ما يلهي من الخواطر الواردة بأسباب خارجيةوباطنية فيقول : «أما الخارج فما يقرع السمع أو يظهر للبصر فإن ذلك قد يختطف الهم حتى يتتبعه ويتصرف فيه ثم تنجر منه الفكرة إلى غيره ويتسلسل ويكون الإبصار سبباً للابتكار ثم تصير بعض تلك الأفكار سبباً للبعض . ومن قويت نيته وعلت همته لم يلهه ما جرى على حواسه ولكن الضعيف لا بد وأن يتفرق به فكره . وعلاجه قطع هذه الأسباب بأن يغض بصره ويصلي في بيت مظلم وألا يترك بين يديه ما يشغل حسه ... وأما الأسباب الباطنية فهي أشد فإن من تشعبت به الهموم في أودية الدنيا لا ينحصر فكره في فن واحد بل لا يزال يطير من

جانب إلى جانب وغض البصر لا يغنيه فإن ما وقع في القلب من قبل كاف للشغل . فهذا طريقه أن يرد النفس قهراً إلى فهم ما يقرؤه في الصلاة ويشغلها به عن غيره ويعينه لذلك أن يستعد له قبل التحريم بأن يجدد على نفسه ذكر الآخرة وموقف المناجاة وخطر المقام بين يدي الله سبحانه وهو المطلع ويفرغ قلبه قبل التحريم بالصلاة عما يهمه فلا يترك لنفسه شغلا يلتفت إليه خاطره ... فهذا طريق تسكين الأفكار . فإن كان لا يسكن هوائج أفكاره بهذا الدواء المسكن فلا ينجيه إلا المسهل الذي يقمع مادة الداء من أعماق العروق وهو أن ينظر في الأمور الصارفة الشاغلة عن إحضار القلب ولا شك أنها تعود إلى مهماته وإنما صارت مهمات لشهواته فيعاقب نفسه بالنزوع عن تلك الشهوات وقطع تلك العلائق ... وهذا هو الدواء القامع لمادة العلة ولا يغني غيره . فأما ما ذكرناه من التلطف بالتذكير والرد إلى فهم الذكر فذلك ينفع في الشهوات الضعيفة التي لا تشغل إلا حواشي القلب فاما الشهوات القوية المرهقة فلا ينفع فيها التسكين بل لا تزال تجاذبها وتجاذبك ثم تغلبك وتنقضي جميع صلاتك في شغل المجاذبة ... وهذه الشهوات كثيرة وقلما يخلو العبد عنها ويجمعها أصل واحد وهو حب الدنيا وكذلك رأس كل خطيئة وأساس كل نقصان ومنبع كل فساد ، ومن انطوى باطنه على حب الدنيا حتى مال إلى شيء منها لا ليتزود منها ولا ليستعين بها على الآخرة فلا يطمعن في أن تصفو له لذة المناجاة في الصلاة فإن من فرح بالدنيا لا يفرح

بالله سبحانه وبمناجاته، وهمة الرجل مع قرة عينه فإن كانت قرة عينه في الدنيا انصرف لا محالة إليها همه، ولكن مع هذا فلا ينبغي أن يترك المجاهدة ورد القلب إلى الصلاة وتقليل الأسباب الشاغلة فهذا هو الدواء المر ولمرارته استبشعته الطباع وبقيت العلة مزمنة وصار الداء عضالاً حتى أن الأكابر اجتهدوا أن يصلوا ركعتين لا يحدثون أنفسهم فيها بأمر الدنيا فعجزوا عن ذلك، فإذن لا مطمع فيه لأمثالنا وليته سلم لنا من الصلاة شطرها أو ثلثها من الوسواس لنكون ممن خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً ... »[1].

وبمعاني القنوت لله والتجرد لله والسكوت والانصراف عن أمر الدنيا تقترن الصلاة بالصوم الذي يكف فيه المرء عن الطعام وفحش الكلام وينصرف عن الشهوات ويستشعر هجر الدنيا والإقبال على الله فيزداد تقوى وإخلاصاً . ولكن الصوم لا يحدث آثاره بمعاناة الجوع والعطش دون إتمامه في الشعور ودون حضور الذهن ووعي الصائم بما يأتي ويدع وإلا لم يكن له من صيامه إلا الحرمان ، وكذلك « ليس للمرء من صلاته إلا ما عقل منها » كما جاء في الأثر « ورب قائم حظه من صلاته السهر »[2] .

والذي يقبل على صلاته يجد يؤديها حق الأداء بجارحته وشعوره ويتجرد لها من كل شاغل وخاطر فقد أصاب

---

(١) احياء علوم الدين – كتاب « أسرار الصلاة » .
(٢) النسائي .

عن الله أجراً كبيراً : «ما من مسلم يتوضأ فيحسن وضوءه ثم يقوم فيصلي ركعتين يقبل عليهما بقلبه وبوجهه إلا وجبت له الجنة »[1] . ثم من يتعهد الصلاة بهذا القنوت الظاهر والباطن فإنها تحدث آثارها في سائر أعماله وفي منهج حياته بما تزرع في نفسه من معاني التوحيد والإخلاص .

٢ ـ الإخلاص لله بالعبادة والولاء

توحيد الله أو إفراده بالتوجه والعبادة هو أساس دين الإسلام وجوهر دعوة الأنبياء جميعاً وقاعدة التكليف الشرعي كله . والصلاة المتوالية التي يتم فيها الإخلاص والتجرد تربية للمسلم تعمق في وجدانه ذلك التوحيد وتنفي عنه الرياء والشرك: « وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ »[2]

وفضلاً عما سلف من أثر التزام القبلة الواحدة وما تقدم من أحكام القنوت والتفرغ العملي لأمر الصلاة فإن كثيراً من أذكار الصلاة ترسخ عند القارىء الواعي عقيدة التوحيد وتبسط آثارها في حياته .

فالتوحيد تحرر للمسلم من الذل والخوف إذ يعتقد أن النعمة كلها من الله فلا يتذلل لغيره برجاء ولا بحمد ويؤمن

---

(١) مسلم .
(٢) البينة .

أن لن يصيبه إلا ما كتب الله فلا يخشى غيره ولا يعرف غيره واهباً للحياة والعافية وقاسماً للحظوظ والأرزاق وملهما للهداية والتوفيق ليس له شريك ولا من دونه ولي يستحق عبادة أو خضوعاً . وبذلك يتحرر المسلم من سلطان الطواغيت وتنطلق حرياته من رهانها إلى رحاب التوكل على الله ويتثبت من الحيرة والارتباك لأن غايته واحدة لا يرتاب فيها أبداً ولا يلبس إيمانه بها بظلم .

وتلك معان تتردد كلها في أذكار الصلاة. فأذانها يبتدىء بإقرار الوحدانية وبه ينتهي . وإذا فرغ المتوضىء لها قال : « أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله[1] » . وإذا اقيمت الصلاة تكرر ذكر الله الواحد الكبير ، وفي أم الكتاب التي لا تكون الصلاة بدونها إلا خداجاً يثبت القارىء الحمد كله لله ويقر له بالربوبية لكل العالمين وبالرحمة جميعاً ما عظم منها وما صغر وبالملك الذي لا ينازع يوم الدين ثم يعلن إفراد الله بالعبادة والاستعانة ، وإذا قرأ المصلي ما تيسر من القرآن فهو جله تذكير بوحدانية الله .

ودعاء القنوت في بعض مأثوره توجه خالص لله وإفراد له بالسعي والعبادة : « اللهم إنّا نستعينك ونستغفرك ، ولا نكفرك ، ونؤمن بك ، ونخلع من يفجرك ، اللهم إياك نعبد ، ولك نصلي ونسجد، وإليك نسعى ونحفد، نرجو رحمتك

---

(١) مسلم .

ونخاف عذابك إن عذابك الجد بالكافرين ملحق .. »[1] .

ولا تنتهي الصلاة إلا بالتشهد يهدي فيه المصلي قبل فراغه أنواع التحيات ـ أو كلمات التوقير والتعظيم ـ والصلوات ـ أي العبادات الفعلية ـ وكل ما طاب وزكى وتبارك من شعور وقول وعمل ـ كل ذلك خالصاً لله ثم يختم بإعلان الشهادة يجدد بها ميثاق التوحيد . وإذا فرغ المصلي كان من مأثور الذكر له عقب الصلاة : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ». وتنزيه الله وحمده وتكبيره : « سبحان الله والحمد لله والله أكبر »[2] ومنه آية الكرسي[3] ـ كلها عبارات متراصة في تمجيد الله وتوحيده ونفي النقائص عن ذاته .

ومن المعاني المتصلة بالتوحيد ـ مما تعمقه الصلاة في نفس المسلم إخلاص الولاء لله والتجرد عن كل العلائق من دونه وتقديم حقه على كل حق . فالسكوت عن شئون الناس والإقبال على الله وحده يتم في الصلاة على أتم الوجوه. فإذا امتد أثره في حياة الإنسان بتعهد الصلاة ودوامها كانت عبادة الله وطاعته أولى عنده من شئون نفسه وأوطارها وكان انقياده لأمر الله لا لأهوائه وغرائزه وشهواته، وكانت علاقاته وحبه وبغضه في الله أشد من ولاءاته وعصبياته الفطرية، وكانت قيمه الدينية هي

---

(١) قنوت عمر .
(٢) الشيخان .
(٣) النسائي .

العليا وتعلقاته الأخروية هي الغالبة .

ويتزكى المصلي بما يتعود في الصلاة من قنوت وانصراف عن الدنيا إلى شأن الله فتتمكن في نفسه معاني هجر الدنيا في جنب الله فلا يقدم حاجاتها بين يدي الله ورسوله ولا يشتري متاع الدنيا ومعاشها بالباقيات الصالحات فيستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير : « وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى. وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى[1] ».

وإذا طال عهد المرء بذكر ربه وخاض في الحياة مع الخائضين فإن حاجات دنياه وزينتها وشهواتها تحيط به حتى تقطعه عن ربه وتستغرق كل همه وتستأصل كل إيمانه وتميت في نفسه معاني التسامي فوق أسباب المادة القريبة فيصبح ولاءه من جنس ولاء الحيوان ، وهكذا تسود في المجتمع عصبيات اللون والعرق والوطن ولا يجتمع الناس إلا على مصلحة ظرفية أو غرض زائل أو عرض قريب .

فإذا تعاهد المرء الصلاة ووالاها طول يومه وداوم عليها كل عمره وثقت صلته بربه وعلمته بقنوتها معاني الترقي فوق ضغوط البيئة المباشرة ونزهت تعلقاته من عصبية الحيوان وشهوة الشيطان فيصير ولاؤه لوجه الله قائماً على الرحابة والوعي لا على

---

(١) طه ١٣١ - ١٣٢ .

الضيق والعمى ويكون تعاونه مع الناس ابتغاء مرضاة الله عميماً خيره دائماً أثره بريئاً من الأنانية والعدوان .

وتثبيتاً لهذه المعاني كان هتاف الصلاة المتكرر هو « الله أكبر » إعلاء لله على كل غاية تكبر عن الإنسان وتقويماً للعلاقة به على كل علاقة . وتقترن الشهادة المتكررة بوحدانية الله بالشهادة بمحمد عبداً ورسولاً لله وقدوة للمسلمين يتوجهون إليه بالاتباع والولاء . ثم يذكر المصلي في الفاتحة صحبة الذين أنعم الله عليهم على الصراط المستقيم ومجانبة المغضوب عليهم والضالين كما يذكر في تشهده عباد الله الصالحين . وبهذه الأذكار ترتسم معالم علاقات المسلم وولاءاته ـ لله ولرسوله وللمؤمنين : « إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ. وَمَنْ يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغَالِبُونَ »[1].

وما دام الفلاح والعز في جنب الله وفي صحبة أوليائه فما أخلص الدعوة التي جاءت في بعض صيغ القنوت : « اللهم اهدني فيمن هديت ، وعافني فيمن عافيت ، وتولني فيمن توليت ، وبارك لي فيما أعطيت ، وقني شر ما قضيت ، فإنك تقضي ولا يقضى عليك ، وإنه لا يذل من واليت ، ولا يعز من عاديت ، تباركت ربنا وتعاليت »[2] .

---

(١) المائدة ٥٥ – ٥٦ .

(٢) النسائي وأبو داود .

والإخلاص لله بالتوحيد والتجرد له بالولاء يورثان المصلي تعظيماً وإجلالا لربه ويدعوانه إلى أن يخشع لذكره ويخضع لأمره فهو يزداد بصلاته طاعة صادقة .

الصلاة خشوع وطاعة صادقة لله والرسول

١ ـ خشوع كامل بالقول والفعل والشعور

في الصلاة تفكر وتأمل وفيها توجه إلى الله بالقول الطيب ولكنها لا تقتصر على التفكر والكلام وإنما هي كذلك هيئات جسدية من قيام وجلوس وحركات من ركوع وسجود وغير ذلك مما يمثل تمجيد الله والتذلل له مصحوباً بالذكر الموافق .

والخشوع حالة تخضع وتطمئن فيها الجوارح بأعمال الصلاة ترافقها أذكار صادرة عن ذهن حاضر متدبر وتواكبها خواطر تقوم بالفؤاد منفعلة بمهابة الله وإجلاله ومشاعر متجهة إليه بالقنوت والإخبات . ولا تتم صلاة بغير خشوع مهما كانت ملتزمة بالمظهر المسنون أو انضبطت فيها الحركات الآلية أو تم كلام اللسان .

ولا يصل إلى الله عمل يؤديه صاحبه عفواً بغير أساس من

تقوى النفوس : « وَالبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ، فَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ ، فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا القَانِعَ وَالمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سخرها لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . لَنْ يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ المُحْسِنِينَ »[1] ولا يصعد إلى الله قرآن يجري على اللسان ولا يمس نفس القارىء « اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ، ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُم وَقُلُوبُهُمْ إلى ذِكْرِ اللهِ ، ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ »[2] . كذلك الصلاة لا يفلح إلا من يقيمها عن خشوع : « قَدْ أَفْلَحَ المُؤْمِنُونَ الذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ »[3] .

والخشوع — كما قدمنا في شأن التوجه إلى الله في الصلاة — حالة لا تتيسر إلا لمن تعهد نفسه بالتزكية ورطب لسانه بذكر الله في كل حين وألان فؤاده باستشعار هيبة ربه حتى تفجرت

---

(١) الحج ٣٦ — ٣٧ .
(٢) الزمر ٢٣ .
(٣) المؤمنون ١ — ٢ .

في نفسه ينابيع الإيمان وعرف طمأنينة اليقين فصار يحسن العبادة كأنه يرى الله : «أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الحَقِّ ، وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ»(١).

والخشوع تكامل بين معان مختلفة منها ما قدمنا من أمر القبلة من التوجه إلى الله وفي أمر القنوت من التجرد له عما سواه ومنها استشعار جلال الله وعظمته والتذلل لجنبه والخضوع والاستكانة بين يديه . ولا بد من استحضار هذا الشعور الشامل لدى كل قول أو عمل من إجراءات الصلاة .

فإذا وقف العبد للصلاة القائمة وولى وجهه شطر القبلة وأقبل ظاهراً وباطناً على العبادة التي يهم بها فإن أول عمله أن يرفع يديه معلناً إكبار الله . واليدان هما أدوات الكسب والبطش يبسطهما المرء عادة بالخير والشر ويستعين بقوتهما في كل شأن ولكنه ازاء الله يكفهما إليه إنباء عن هوانه وقلة حيلته وينصبهما إلى منكبيه مطلقة أكفهما بعيدتين عن وضعهما الفعال آية للعجز والإستسلام وطرحاً لكل مقاومة وإظهاراً لتمام الإنقياد . «واختلفت عبارة العلماء في الحكمة في رفع اليدين فقال الشافعي رضي الله عنه : فعلته إعظاماً لله تعالى واتباعاً لسنة الرسول ﷺ وقال غيره : استكانة واستسلام

(١) الحديد ١٦ .

تقوى النفوس : « وَالبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ، فَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ ، فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا القَانِعَ وَالمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سخرها لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . لَنْ يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ المُحْسِنِينَ »[1] ولا يصعد إلى الله قرآن يجري على اللسان ولا يمس نفس القارىء « اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ، ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُم وَقُلُوبُهُمْ إلى ذِكْرِ اللهِ ، ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ »[2] . كذلك الصلاة لا يفلح إلا من يقيمها عن خشوع : « قَدْ أَفْلَحَ المُؤْمِنُونَ الذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ »[3] .

والخشوع — كما قدمنا في شأن التوجه إلى الله في الصلاة — حالة لا تتيسر إلا لمن تعهد نفسه بالتزكية ورطب لسانه بذكر الله في كل حين وألان فؤاده باستشعار هيبة ربه حتى تفجرت

---

(١) الحج ٣٦ — ٣٧ .
(٢) الزمر ٢٣ .
(٣) المؤمنون ١ — ٢ .

في نفسه ينابيع الإيمان وعرف طمأنينة اليقين فصار يحسن العبادة كأنه يرى الله : «أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الحَقِّ ، وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ»(١).

والخشوع تكامل بين معان مختلفة منها ما قدمنا من أمر القبلة من التوجه إلى الله وفي أمر القنوت من التجرد له عما سواه ومنها استشعار جلال الله وعظمته والتذلل لجنبه والخضوع والاستكانة بين يديه . ولا بد من استحضار هذا الشعور الشامل لدى كل قول أو عمل من إجراءات الصلاة .

فإذا وقف العبد للصلاة القائمة وولى وجهه شطر القبلة وأقبل ظاهراً وباطناً على العبادة التي يهم بها فإن أول عمله أن يرفع يديه معلناً إكبار الله . واليدان هما أدوات الكسب والبطش يبسطهما المرء عادة بالخير والشر ويستعين بقوتهما في كل شأن ولكنه ازاء الله يكفهما إليه إنباء عن هوانه وقلة حيلته وينصبهما إلى منكبيه مطلقة أكفهما بعيدتين عن وضعهما الفعال آية للعجز والإستسلام وطرحاً لكل مقاومة وإظهاراً لتمام الإنقياد . «واختلفت عبارة العلماء في الحكمة في رفع اليدين فقال الشافعي رضي الله عنه : فعلته إعظاماً لله تعالى واتباعاً لسنة الرسول ﷺ وقال غيره : استكانة واستسلام

(١) الحديد ١٦ .

وانقياد وكان الأسير إذا غلب مد يديه علامة للاستسلام وقيل هذه إشارة إلى استعظام ما يدخل فيه وقيل إشارة إلى طرح أمور الدنيا والإقبال بكليته على الصلاة ومناجاة ربه سبحانه وتعالى كما تضمن ذلك قوله « الله أكبر » فيطابق فعله قوله وقيل إشارة إلى دخوله في الصلاة ... والله أعلم »[1] .

ويطرق المصلي ببصره ويطأطىء رأسه حياء وتواضعاً : « ما بال أقوام يرفعون أبصارهم إلى السماء في صلاتهم لينتهين عن ذلك أو لتخطفن أبصارهم »[2] ولا يصلي مختصراً[3] تأدباً مع ربه ويقبض يديه أمامه كأنهما موثقتين بقيد ذليل وتسكن حركته فلا يعبث باطرافه ولا هندامه وتقرأنفاسه ويلزم الطمأنينة والسكينة والوقار اعتباراً لمقامه من ربه : « إذا ثوب للصلاة فلا يسع إليها أحدكم ولكن ليمش وعليه السكينة والوقار »[3].

ثم يقرأ المصلي قرآنه خاشعاً يلين جلده لوقع الآيات خضوعاً وسمعاً وطاعة . ويهوى إلى الركوع فيخفض بالتذلل قامته التي أقامها الله تكريماً للإنسان على الحيوان . ويحني ظهره وكأنما تبوء قوة متنه بأعباء الطاعة . ويكبر الله عن الهوى متضعاً ، ويعظمه في الركوع مسبحاً بحمده : « فأما الركوع فعظموا فيه الرب »[4] ومعرباً عن حالته الخاشعة : « اللهم لك ركعت

---

(١) شرح مسلم للنووي .
(٢) لا يضع يده في خاصرته أثناء الصلاة .
(٣) الشيخان .
(٤) الشيخان .

وبك آمنت ولك أسلمت خشع لك سمعي وبصري ومخي وعظمي وعصبي »، « سبوح قدوس رب الملائكة والروح »[1].

ويرفع المصلي رأسه شاهداً بأن الله يسمع من حمده فيكرر الحمد ويزيد في ذلك ما شاء ، يستزيد الله رحمة وفضلاً : « اللهم ربنا ولك الحمد ، ملء السموات والأرض ، وملء ما شئت من شيء بعد أهل الثناء والمجد أحق ما قاله عبد وكلنا لك عبد لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد »[2] .

ثم ينحط للسجود فيضع إلى الأرض محياه ومرآة مشاعره الذي يحرص عند غير الله على حفظ مائه وصون عزته ، فإذا بلغ المرء بهامته العالية غاية الانخفاض وألصق جبهته بالتراب فذلك مبلغ الاستكانة والتذلل للذي خلقه وصوره ، وحق للمصلي الساجد أن يذكر ربه العلي وهو في تلك الحالة الخفيضة « سبحان ربي الأعلى »[3] وأن يناجيه : « اللهم لك سجدت وبك آمنت ولك أسلمت سجد وجهي للذي خلقه وصوره فشق سمعه وبصره فتبارك الله أحسن الخالقين »[4] .

والركوع والسجود غاية التواضع لله بالبدن ومنتهى الخشوع ولذلك فهما لب الصلاة ، وكثيراً ما يعبر القرآن عن الصلاة

---

(١) مسلم .
(٢) مسلم .
(٣) الشيخان .
(٤) أبو داود .

بذكر هذه الأركان التي تصور تمام العبادة فيها : « التَّائِبُونَ العَابِدُونَ الحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ المُنْكَرِ وَالحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ وَبَشِّرِ المُؤْمِنِينَ »[1] ، « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ »[2] ، « مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ .. »[3] .

وفي الجلوس يشير المصلي بسبابته[4] نحو القبلة الواحدة إخلاصاً وتوحيداً ويأخذ في تحريكها موافقة للسانه وهو يتحرك بالتحيات لله وبالسلام على النبي وعلى نفسه وإخوانه وبالشهادة ألا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله .

ويبدأ المصلي ويعيد في أركان الصلاة وأذكارها تأكيداً للمعاني وتثبيتاً لأثرها في نفسه ويلتزم في صفاتها وهيئاتها بسنة النبي ﷺ دقة في الإتباع والطاعة ويتجنب في أوضاعه التشبه

---

(١) التوبة ١١٢ .
(٢) الحج ٧٧ .
(٣) الفتح ٢٩ .
(٤) مسلم .

بالحيوان[1] تأكيداً لإنسانيته المكرمة وتمييزاً لصور التذلل والخضوع التي تصدر عن خيار الإنسان العاقل الشاعر بمسئوليته الواعي بمعنى عمله عما تأتيه البهائم بالطبع والغريزة .

فالصلاة الخاشعة مقالات خالصة يلهج بها الإنسان تصديقاً لما يقوم بالفؤاد من التوجه إلى الله بالتعظيم والثناء والطاعة والولاء وأوضاع بدنية يتواضع بها الإنسان ويستكين لربه ، ويعود المصلي إلى ذلك الذكر وتلك الأوضاع مثنى أو ثلاث أو رباع في الصلاة الواحدة فإذا تعاقبت الصلوات فرضاً ونفلاً طوال يوم المسلم أورثه ذلك من مهابة الله ما يحمله على الامتثال لأوامره والتزام طاعته في كل مجال .

٢ ـ تكامل في الدين وطاعة لله والرسول

من عبادة الله التفكر في الكون والنفس والتأمل في آيات الخالق ونعمائه ومنها الكلم الطيب تسبيحاً وتحميداً ومنها عبادة فعلية تُنفذها الجوارح . أما الصلاة فهي عبارة شاملة لكل وجوه التعبد ـ قاعدتها نية وشعور ينطوي على كل أنواع الخاطر وأقوال تعبر عن جميع المعاني اللائقة بخطاب العبد لربه وأوضاع فعلية تشترك فيها كل الجوارح .

ولما كانت الصلاة هي عماد الدين فانها تعلم المسلم وتبصره بشمول تكاليف الدين ، فليس الدين مجرد انتماء نظري يرضى من أتباعه بحالة اعتقاد عقلي، ولا هو شعار لفظي يقول فيه المرء

---

(١) أبو داود .

بلسانه ما يقول ولكنه كذلك التزام عملي وفعل يصدق إيمان المرء وزعمه .

وتكاد تتميز الصلاة في الإسلام عنها في سائر النحل بركوعها وسجودها وحركاتها كما يتميز الإسلام بأنه دين لا يرضى من المسلم بالانطواء على عاطفة مخلصة وشعور روحي كما هو مفهوم الدين في كثير من الملل ، ولا يكفي في الإسلام ترداد التسابيح والتعاويذ والدعوات كما يعهد في كثير من الديانات ، وإنما يجب على المسلم أن يكمل دينه بتنفيذ التكاليف العملية الخاصة والعامة فتتسق طويته وظاهره ويستقيم قوله وعمله : « ليس الإيمان بالتمني ، ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل »[1] « يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ، كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ »[2] ، « إِنَّ الذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ »[3] .

والصلاة بحركاتها الجسدية ترويض لجسم الإنسان متناً وأطرافاً وهي بذلك تحدث أثراً عضوياً نافعاً كبعض الذي يحدثه ما يتعهد الناس من مناهج الرياضة البدنية ، ولكن مهما

---

(١) البخاري .
(٢) الصف ٢ - ٣ .
(٣) الأحقاف ١٢ - ١٤ .

تكن هذه الفائدة الجانبية فإن جوهر ما يترتب على الصلاة ذات الحركات هو ترويض نفس المصلي وإلانة جوارحه لطاعة الله .

والخشوع في أركان الصلاة تذكير للمسلم بأن العمل الظاهر لا يتم إلا إذا تجاوبت معه حالة نفسية صالحة وهذا أيضاً وجه من وجوه تكامل الدين – لا تستقيم النيات إلا إذا صدقتها الأعمال ولا تصح الأعمال إلا إذا أسست على تقوى النفوس وقصد بها الامتثال لأمر الله . وقد أعقبت أحكام القبلة من سورة البقرة آية جامعة فحواها أن الدين ليس طقوساً شكلية إنما هو إيمان راسخ وعمل صالح في كل مجالات الحياة : « لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ والكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ والسَّائِلِينَ وفي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ والضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ »[1] .

والصلاة بأقوالها المأثورة وحركاتها المسنونة تربية للمسلم في اتباع نهج الرسول ﷺ واتخاذه قدوة حسنة في سائر مسلك الإنسان . فالرسول ﷺ يوصينا في شأن الصلاة : « صلوا كما

---

(١) البقرة ١٧٧ .

رأيتموني أصلي »[1] ، وكان أصحابه يلاحظون فعله فيها فيقلدونه بدقة ويزكون الواحد منهم فيصفونه بأنه أشبه الناس بصلاة رسول الله .

والذي يراعي هذه السنة الباقية ويلتزمها مرات في اليوم الواحد يذكر فيها ما بلغه من أذكار الرسول حرفاً حرفاً وينهج في صفتها ما روي من أفعاله حركة حركة — والذي يستشعر في ذلك كله تقليد الرسول واتباع سنته — مصبح بلا ريب متعلقاً بطريقة الرسول ينهج نهجه في سائر جوانب الحياة ، ويحيي ما درس من سنته . ويصير هواه تبعاً لما جاء به محمد ﷺ يذكر إذا ذكر ، ويتوب إذا قصر ، ويضع نصب عينيه موعظة الرسول البليغة : « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فان كل بدعة ضلالة »[2] .

والصلاة كذلك تربية تهيء المسلم لطاعة الله حيثما كان فالذي يطوع جوارحه لأمر الله وهو خاشع والذي يولي وجهه شطر الكعبة لا يلتفت والذي ينصب يديه بالتكبير مستسلماً لله والذي يحني قامته راكعاً ساجداً والذي يراقب اتباع سنة الرسول بكل طرف من أطرافه — الذي يفعل ذلك ويعود إليه في كل ركعة وعند كل صلاة فهو بلا ريب طائع لله في سائر أموره

---

(١) البخاري .
(٢) أبو داود .

فإذا تجاوز مسجده وخالط دنيا الناس التزم تقوى الله وراقبه في كل عمل .

والذي يستنكف عن رهن جوارحه لطاعة الله مرات معدودة في اليوم وإحناء متنه وتعفير وجهه تذللاً وانكساراً لا يرجى منه أن يقف عند حدود الله أو يلين لأوامره خارج الصلاة . والذي يستخف بصلاته وإذا قام إليها قام كسلان يسرق من ركوعها وسجودها ، ذهنه مدبر شرود . وبدنه لا يلزم السكينة والوقار فهو الذي يجد في نفسه حرجاً من طاعة الله في كل تكليف آخر وإذا أطاعه فهو كاره لا يستوفي أركان الطاعة ولا يرعاها حق الرعاية .

وهذا التلازم بين طاعة الصلاة وسائر الطاعات في الحياة هو الذي جعل أركان الصلاة من ركوع وسجود رمزاً للطاعات عامة . وبهذا المعنى العام ورد ذكر هذه الأركان في كثير من آي القرآن : « وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ »(١) ، « إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ »(٢) ، « وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ »(٣) ، « وَإِذَا

---

(١) البقرة ٤٣ .
(٢) المائدة ٥٥ .
(٣) الرعد ١٥ .

قِيلَ لَهُمْ ارْكَعُوا لا يَرْكَعُونَ »[1] « فَمَا لَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ . وإذا قُرِيءَ عَلَيْهِمُ القُرْآنُ لا يَسْجُدُونَ »[2] فالركوع والسجود هنا إنما هو الانصياع والطاعة[3] .

وهذا التلازم أيضاً هو الذي يفسر اقتران الصلاة في القرآن الكريم بسائر أعمال البر وأوجه الطاعات إذ الصلاة طاعة تستتبع بقية الطاعات : « يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ »[4] « قَدْ أَفْلَحَ المُؤْمِنُونَ الذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ ، وَالذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ وَالذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ، وَالذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ، فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ العَادُونَ ، وَالذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ، وَالذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ، أُولَئِكَ هُمُ الوَارِثُونَ ، الذِينَ يَرِثُونَ الفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ »[5] ، « فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ

---

(١) المرسلات ٤٨ .
(٢) الانشقاق ٢٠ - ٢١ .
(٣) ابن جرير الطبري .
(٤) الحج ٧٧ .
(٥) المؤمنون ١ - ١١ .

وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ »[1] ، « إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً ، إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً وَإِذا مَسَّهُ الخَيْرُ مَنُوعاً ، إِلاَّ المُصَلِّينَ ، الذِينَ هُمْ عَلى صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ ، والذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ لِلسَّائِلِ وَالمَحْرُومِ ، وَالذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ، وَالذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ، إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ، وَالذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلاَّ عَلى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ، فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ العَادُونَ ، وَالذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ وَالذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ ، وَالذِينَ هُمْ عَلى صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ، أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ »[2].

وقد أوضحنا قبلاً كيف تستتبع الصلاة الزكاة والصدقة ، ولا يخفى كيف يدعو سكوت الصلاة وقنوتها إلى الإعراض عن اللغو في جميع الأحوال ، أو كيف يتربى المسلم بانضباط الأعضاء وانصياعها لحدود الصلاة على انضباط الأعضاء الجنسية بحدود الله ، أو كيف يتعلم من يتعهد الأوقات المكتوبة أن يفي بعهده كله ومن التزام القبلة والوجهة المستقيمة أن يستقيم

---

(١) المجادلة ١٣ .

(٢) المعارج ١٩ - ٣٥ .

في أداء الشهادة بلا ميل ، ثم لا يخفى عموماً أثر الصلاة في التذكير بالله والإيمان بالغيب والجزاء مما يبعث على كل طاعة وينهى عن كل معصية وفسوق .

وخلاصة القول أن الصلاة تدعو إلى الطاعة وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر لأنها تمثل تمام الانصياع بالبدن من المتن إلى أطراف الأصابع وتمام الخشوع شعوراً وتعبيراً فهي مران على الخضوع وتركيز للإيمان بجلاله وعظمته مما يستوجب الطاعة الوافية الصادقة ، وبهيبة الله وجبروته مما يورث طاعته وخشيته فيما أمر كما يورث تقواه فيما نهى والإنابة إليه بعد المعصية ..

الصَّلاة طهارة وإنابة وتقوى

١ – طهارة وإنابة

الصلاة لقاء يسعى إليه العبد لمناجاة ربه فهو يتهيأ له بالطهور غسلاً أو وضوءاً أو تيمماً . ذلك أنه يستحي أن يلقى ربه وقد ضيع عهده أو تباعد عنه بالإيغال في طبيعته الأرضية ، أو في الغفلة والنسيان، فكلما استغرق في نوم أو في شهوة أو باشر شيئاً من قضاء الحاجة فلامسته التلوثات البشرية وغشيته الغفلة ، كان في حاجة لتطهير نفسه من رين حياته البهيمية والمادية ليزكو فيه عنصر الروح ويستشرف لعالمها حيث يلقى ربه .

وفي الغسل والوضوء نظافة بدنية لائقة بعبد يتجمل لموقفه مع ربه ليلقاه نظيفاً وضيئاً . ومن آثار الطهور في حياة المسلمين عامة أن أصبحت النظافة من مظاهرهم اللازمة . فقد شرعت لهم بأسباب من قضاء حاجة الجنس والجسم، تتكرر بحكم العادة

البشرية ، ولذلك توالت عليهم النظافة منها ما يشمل الجسد كله ومنها ما يقتصر على الأطراف المتعرضة للأوساخ ، فكان لذلك الغسل عند مباشرة الجنس أو يوم الجمعة ، وكان لهذا الوضوء مرات في اليوم الواحد . ومن سنة المسلمين كذلك السواك عند كل صلاة وهو سبب لنظافة الفم وطهارته .

وإذا كانت النظافة الظاهرة من أهم آثار الوضوء فإن معناه الأكبر هو نظافة الروح ، وتجلية النفس من أصداء الذنوب ، ورواسب البعد من الله . فالمتوضئ يأخذ الأعضاء التي تكسب الخطايا بالغسل ، فيسيل عليها ماء طهوراً ويدلكها ويتقن غسلها تكراراً تعبيراً عن نيته في أن يجتهد في إزالة الذنوب ونزعها وطرحها وتعقب مصادرها بعلاج التكفير : « إذا توضأ العبد المسلم فغسل وجهه خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينيه مع آخر الماء ، فإذا غسل يديه خرج من يديه كل خطيئة كان بطشتها يداه مع الماء ، فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء حتى يخرج نقياً من الذنوب »[1] .

ويبدأ المتوضئ عمل الطهور بسم الله ويدعو — إن شاء — مستغفراً ذنبه وداعياً ربه أن يكفيه أسباب الذنوب ليوافق قوله عمله : « اللهم اغفر لي ذنبي ووسع لي في داري وبارك لي في رزقي »[2] .

وإذا أكمل المتهيىء للصلاة وضوءه وأحسنه تم له التطهر

---

(١) مسلم .

(٢) النسائي .

من الذنوب : « من توضأ غفر له ما تقدم من ذنبه وكانت صلاته ومشيه إلى المسجد نافلة »[1] ، « ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ، ويرفع به الدرجات : إسباغ الوضوء على المكاره وكثرة الخطا إلى المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلك الرباط »[2] .

وعندما يقبل المصلي على صلاته يستر عورته البادية بلباس طاهر ولا يتم له معنى الستر حتى يستر كذلك عورات نفسه الباطنية بلباس التقوى . والله يعلم السر والعلن لا تخفى عنه خافية النفوس، وإنما يوارى المصلي ما يشين سريرته بالحياء ويمحوه ويطرحه بالمتاب .

ويتزين المصلي بالهيئة الجميلة بين يدي الصلاة : « يا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ... »[3] ، ويكمل ذلك الطلاء الظاهر بأن يزدان بتقوى النفس ليحسن صورته الباطنة .

والتلازم بين التقوى والستر الظاهر وبين الخطيئة وكشف العورة معنى نجد سره في قصة آدم وحواء ، إذ بوأهما ربهما من الجنة نزلاً يأكلان حيث شاءا رغداً ونهاهما عن الشجرة، فأغراهما الشيطان فما إن ذاقاها حتى بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ويستغفران الله ويسترحمانه . وكتب الله من بعد وصيته الخالدة : « يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا

---

(١) مسلم .
(٢) مسلم .
(٣) الأعراف ٣١ .

عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشاً ، وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ، يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا ... »[1] .

ومن طهارة الصلاة وسترها وزينتها يعتاد المسلمون نظافة البدن وطهارة الثوب وحسن الهيئة باعتيادهم إقام الصلاة فتطيب حياتهم كلها وتتوافر لهم أسباب الصحة العامة والجمال فضلاً عن طهارة النفس وستر عيوبها وحسن الطوية وجمالها .

ويقف المصلي بين يدي ربه مطرقاً في تذلل،ويركع له ويسجد استكانة واستعطافاً،ولا يكاد ينفك من استغفار الله في أذكاره ، فإذا أسلم وجهه لله قائماً ساءل ربه أن يتم له طهوره : « اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب ، اللهم نقني من خطاياي كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس ، اللهم اغسلني من خطاياي بالماء والثلج والبرد »[2] . ويدعو المصلي وهو أقرب ما يكون لربه : «اللهم أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك ، لا أحصي ثناء عليك أنت كما اثنيت على نفسك» [3].

---

(١) الأعراف ٢٦ - ٢٧ .
(٢) الشيخان .
(٣) مسلم .

« اللهم اغفر لي ذنبي كله . دقه وجله . وأوله وآخره وسره وعلانيته» .[1] إلى غير ذلك من عبارات الاستغفار . وإذا استوى قاعداً بين سجدتين دعا: « اللهم اغفر لي وارحمني »[2]. وبعد التشهد يختم صلاته بالاستغفار: « اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً وإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم »[3] . ثم يعود إلى مزيد من الاستغفار بعد السلام .

فالمصلي المتطهر المستغفر الخاشع يخرج من صلاته وقد تبرأ من ذنوبه وكفرها بما اجتهد في توضئه وتستره وصدق في طلب عفو الله وأحسن في أداء الطاعة : « ما من امرىء مسلم تحضره صلاة مكتوبة فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب ما لم يؤت كبيرة ذلك الدهر كله »[4] .

وللراكعين جميعاً أسوة حسنة وبشرى طيبة في قصة توبة داود عليه السلام ونعم العبد إنه أواب : « وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ ، فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَئَابٍ »[5] .

---

(١) مسلم .
(٢) أبو داود .
(٣) الشيخان .
(٤) مسلم .
(٥) ص ٢٤ – ٢٥ .

وإن الصلاة بذلك لأكبر صور التوبة لأنها بأذكارها تعبير واف عن طلب العفو من الله وبأفعالها تمثل صادق للتذلل إليه رجاء مرضاته ورحمته . والمسلم المحافظ على صلاته يعود إليها خمس مرات في اليوم على الأقل ويعود بذلك إلى توبته فتتخلل التوبة يومه كله ولا تكاد تبقى من ذنوبه شيئاً : « وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الحسناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذاكِرِينَ »[1] . « أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شيء ؟ قالوا : لا يبقى من درنه شيء. قال: فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا »[2].

٢ – تقوى ومزدجر عند المعاصي

الصلاة تذكرة بالله غافر الذنب قابل التوب شديد العقاب. ويتلى فيها القرآن فيرد فيه ذكر لعذاب الله فيستعيذ القارىء المتدبر ، وبيان لمحارم الله ولمكارهه فيعزم المصلي الخاشع ألا يقع فيها حذراً من حساب الله وسخطه وعقوبته وأملاً في رضاه ومعافاته . ويستذكر المصلي فتنة الله وعذابه فيلوذ به في بعض دعائه : « اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم ومن عذاب القبر ومن فتنة المحيا والممات ومن شر فتنة المسيح

---

(١) هود ١١٤ .
(٢) الشيخان .

الدجال »[1] .

ومجمل القول أن الصلاة تنمي إيمان المؤمن بالغيب وتزيد خشيته من الله فيتقي عذابه بالتواضع لأمره واجتناب نواهيه . ولذلك اقترن ذكر الصلاة في القرآن بالإيمان بلقاء الله والخوف من جنابه : « وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ »[2] ، « وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ »[3] ، « وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ »[4] ، « وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ »[5] .

فالصلاة والتقوى متلازمتان — لا يقيم الصلاة إلا الذين يتقون، ولا يتم خشوعها إلا الذين يخشون لقاء الله، وتزيد هؤلاء صلاتهم إيماناً بالله وتقاه لما نهى عنه . فإذا قام الخاشع من صلاته

---

(١) مسلم .
(٢) البقرة ٤٥ — ٤٦ .
(٣) الأنعام ٧٢ .
(٤) الأنعام ٩٢ .
(٥) الحج ٣٤ — ٣٥ .

قام وقد تمكن منه خوف الله يزجره عن كل فحشاء ومنكر . ولا تلهيه دنياه وعلائقه المادية حتى تحل عليه الصلاة التالية فتزوده بشحنة من التقوى .

ولذلك كانت الصلاة من أعظم النواهي عن المعاصي : « اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ والمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ »[1] . وقد أمر الله بني إسرائيل ألا يكفروا بكتابه ورسوله بغياً وحسداً وألا يشتروا بآياته ثمناً قليلاً وألا يلبسوا الحق بالباطل وأوصاهم بالاستعانة بالصلاة على مجانبة تلك المعاصي ومدافعة هوى النفس : « وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ والصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الخَاشِعِينَ »[2].

والصلاة هي التي تعصم صاحبها من الهوى فينتظم بها في موكب الذين أنعم الله عليهم كما يطلب المصلي من ربه في دعاء الفاتحة : « أُولَئِكَ الذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيًّا . فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ

---

(١) العنكبوت ٤٥ .

(٢) البقرة ٤٥ .

فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً »[1] . وتضييع الصلاة غفلة متصلة عن الله ولقائه تنسى المرء معاني الخوف والتقوى . وهو كذلك هجران لما يتلى فيها من آيات الله الداعية للبر والطاعات الناهية عن الغرور بالدنيا والوقوع في المعاصي والشهوات .

والذين يؤدون الصلاة فإذا قاموا من مسجدهم تخطفتهم شهواتهم إنما أدوها ساهين لاهين لم يحسنوا فيها الخشوع ولم يقتربوا بها من الله . وقد قرر القرآن أن الاستعانة بالصلاة على هوى النفس خطة تكبر على غير الخاشعين : « وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ »[2]. وصدق القول المأثور : « من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعداً » .

وقد جهل قدر الصلاة الذين لا يدركون أثرها الشامل في النهي عن المعاصي في كل جانب من جوانب الحياة . فما أسفه أحلام مدين إذ جاءهم أخوهم شعيب عليه السلام يدعوهم للإيمان ولتقوى الله في علاقاتهم الاقتصادية وإلى توفير الحرية للعابدين، فاستنكروا فيما استنكروا شمول الدين، واستبعدوا الصلة بين شعيرة الصلاة ومن المنتهى عما هم فيه من ضلال : « قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا

---

(١) مريم ٥٨ - ٥٩ .
(٢) البقرة ٤٥ - ٤٦ .

أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ؟ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ »[1] .

وإذا كان المسلم يقع في المعاصي فإن الصلاة توبة له تتوالى طول اليوم فتتعاقب على خطاياه فتمحوها كلما تراكمت بين فترات الصلاة . وهذا التعاقب يعلم المسلم أن يجدد التوبة دائماً قبل أن تحيط به الخطيئة . والإنسان إذا بقي على معصية الله عهداً طويلاً تراكم عليه الدين وقسا قلبه وأغراه التراخي بأن يمني نفسه بتوبة آيلة، ولكن المعاصي تحول بينه وبين نفسه فلا يملك إلا أن يتمادى ويلهيه أمل في التوبة أبعد ، وهكذا . يتباعد عن ربه حتى يدركه الموت وهو من الخاسرين . أما المصلي فهو يعجل التوبة بعد التوبة لأنه في كل مرة يطهر ظاهره وسريرته بالوضوء ثم يستر عورته البادية والباطنة ثم يقبل على صلاته فيكمل توبته ويؤكدها فيها عملاً وقولاً .ولا يغادر مجلسه بعد الفراغ من صلاته حتى يستغفر مرة أخرى ويسبح الله ويحمده ويكبره ثلاثاً وثلاثين ويتم المائة بلا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير فتغفر خطاياه ولو كانت مثل زبد البحر »[2] .

وهذا التوالي في التوبات قبل تمكين الخطيئة يدوم على المسلم بدوام الصلاة فيصبح تواباً – والله يحب التوابين المتطهرين،

---

(١) هود ٨٧ .
(٢) الشيخان .

ويتعلم الإنابة إلى الحق ومحاسبة النفس من قريب ، ولا يتبع نفسه هواها : « يا أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه فإني أتوب إليه في اليوم مائة مرة »[1] .

وتكرار الاستغفار والتوبة من الذنوب ينمي في المصلي إيمانه بقيم الإحسان والإساءة، لأن مقارفة الذنوب تزيد رين القلوب وتزين الخطيئة وتضعف شعور الإنسان بعنصر السوء فيها، بينما تؤكد التوبة المتعاقبة في النفس تقديراً دقيقاً لمعايير الخير والشر، وتورث اعتصاماً بمحاسن الأخلاق وهجراً لمساوئها.

والتوبة معنى كبير بين معاني الدين ، فيها مرضاة الله بل فرحته : « لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره وقد أضله في أرض فلاة »[2] ، وعليها تترتب بشريات طيبة : « من لزم الاستغفار جعل الله له من كل ضيق مخرجاً ، ومن كل همّ فرجاً ، ورزقه من حيث لا يحتسب »[3] . وتلك ذاتها هي بشرى المتقين : « وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ »[4] وهي لذلك أيضاً بشرى المصلين لأن الصلاة أكبر أسباب التوبة والتقوى جميعاً .

---

(١) مسلم .
(٢) الشيخان .
(٣) أبو داوود .
(٤) الطلاق ٢ ، ٣ .

وكما رأينا آنفاً في الصلاة أنها متاب للعبد ومحط لخطاياه ومزدجر يعصمه من المنكر والحرام ، نرى فيها من وجه آخر أثراً إيجابياً – إنها دافع للهمة والأمل ومسألة يرجو فيها العبد من عطاء الله وتوفيقه وحافزاً ينهض به إلى المعروف والواجب بجد وفعالية ..

الصلاة تزكية للإيمان وقوة لدوافع الجهاد

١ - قربى وتذكرة بأصول الإيمان

الصلاة زلفى إلى الله وكان فرضها كما قدمنا عن أقرب ما بلغ المعراج اشعاراً بأنها أعظم القربات إليه تعالى ، وفي سجودها يبلغ المصلي غاية القرب الذي تهيؤه له درجة تقواه : « أقرب ما يكون العبد إلى ربه في السجود »[1] .

والإنسان ما دام في الإرض عرضة لأن تباعد بينه وبين عالم الروح تعلقاته المادية وشهواته البهيمية ووسوسة الشيطان واغراءاته، وبذلك تجف عروق الإيمان في نفسه حتى تسعفه الصلاة، كالواحة في صحراء الدنيا يدنو فيها من ربه فتروى روحه من برد اليقين .

ففي الصلاة يمم المسلم شطر الكعبة فيسلم وجهه لله ويقبل

---

(١) مسلم .

عليه. لا يلتفت عنه بيدنه ولا بذهنه ويسكت عن الناس. وينصرف عن علاقاتهم قانتاً لله حنيفاً لا يشرك به شيئاً . ويقوم يناجي ربه وقد رفع كل حجاب حائل بطهور الجسم والروح وستر العورة الظاهرة والباطنة. وبالاستغفار بعد الاستغفار. فجلى نفسه من رين الخطايا لتباشر معاني القرب وتجد حلاوة الإيمان . ويظل المصلي يحيي ربه بالكلم الطيب . يحمده ويثني عليه الخير كله ، ويمجده فيوليه مطلق التعظيم ، ويسبحه فينزهه من كل نقص . ويسخر جوارحه معبراً عن طاعته والخضوع له فيقبض يديه مستسلماً ويحني قامته معظماً ، ويسجد لربه الأعلى حاضراً في ذلك كله ذهنه، خاشعاً لله بقوله وفعله مخبتاً له بكل كيانه .

فالصلاة التامة إذاً أوثق أسباب القرب من الله، فمن ضيعها أدبر عن ربه وابتعد : « فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى »[1] ، ومن تعهدها بالحفظ وأبى أن يطيع فيها الصواد عن ذكر الله فإنما حفظ لنفسه قرب المقام من ربه : « كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب »[2] . وكلما أحسن العبد قيامها فرضاً ونافلة توطدت صلته بربه حتى يصبح ولياً رهن أمر الله، لا يتحرك إلا موافقاً له : « إن الله تعالى قال : من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه ، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره

---

(١) القيامة ٣١ – ٣٢ .

(٢) العلق ١٩ .

الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها ، وإن سألني أعطيته ، ولئن استعاذني لأعيذنه »[1] .

فقرب العبد من الله بالتوجه والقنوت والذكر والخشوع يزيد إيمانه بالغيب ويقينه بالجزاء فيشتد خوفه ويقوى رجاؤه : « إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّداً وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ »[2] . « أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ »[3].

أما حذر الآخرة فقد تقدم ذكره ، واتضح أثره في زيادة التقوى والانتهاء عن حرمات الله والازدجار عن كل فحشاء ومنكر ، وترداد الاستغفار وتوالي التوبات . وإنما تدعو الصلاة لذلك لأنها تعبير عن خشية الله وسبب لزيادة الخوف منه .

وأما رجاء رحمة الله فتعبر عنه وتزيده كثرة الدعاء في الصلاة . فالصلاة لحظة قرب ينتهزها العبد للدعاء، والله رحيم ودود إذا تقرب إليه عبده شبراً تقرب إليه ذراعاً وإذا تقرب

---

(١) البخاري .
(٢) السجدة ١٥ - ١٦ .
(٣) الزمر ٩ .

إليه ذراعاً تقرب إليه باعاً وإذا أتاه يمشي أتاه هرولة »[1] . وهو سميع مجيب يجيب دعوة الداعي إذا دعاه . وقد ذكر القرآن في ذلك قصة زكريا عليه السلام إذ دعا ربه ذرية طيبة وهو شيخ كبير وامرأته عاقر فجاءته البشرى وهو في مصلاه : « فَنَادَتْهُ الملائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي في المِحْرَابِ أنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيى مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ وَسَيِّداً وَحَصُوراً وَنَبِيّاً مِنَ الصَّالِحِينَ »[2] . وأشد ما يكون قرب المصلي في سجوده ، ولذلك كان السجود موضع الاجتهاد في التضرع إلى الله : « وأما السجود فاجتهدوا في الدعاء فقمن أن يستجاب لكم »[3] . ويتهيأ المصلي لهذا الموضع القريب بأن يشهد لدى القيام من الركوع بأن الله سامع لمن حمده، ثم يقوم حامداً الله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه ملء السموات والأرض وما شاء الله بعد، ثم يهوى للسجود ليخلص في السؤال واثقاً أن الله سميع حميد .

وأصل الصلاة في اللغة الدعاء، فلا غرو إن اتسع المجال فيها لسؤال المصلي ربه ، فله أن يدعو عن قيام دعاء الاستفتاح، ودعاء القنوت في صلوات أو ظروف مخصوصة، وله أن يدعو عن جلوس بين السجدتين وبعد التشهد وعقب السلام. وللمصلي

---

(١) البخاري .
(٢) آل عمران ٣٩ .
(٣) مسلم .

أن يتخير من الدعاء ما يشاء إلا أن واجب الدعاء سؤال الهداية إلى الصراط المستقيم في فاتحة الكتاب ؛ وأفضله المأثور عن النبي ﷺ .

والدعاء مخ العبادة كلما أكثر منه المسلم استشعر قربه من ربه ورغبته إليه وقوى رجاؤه وتوطدت بينه وبين ربه الأسباب . فالصلاة مطية القرب من الله لأنها اخلص مجالات الدعـاء .

وفضلاً عن الخوف والرجاء فإن من معاني الإيمان التي تدعو إليها وتزيدها الصلاة ثباتاً في نفس المؤمن : الشكر . فقد كان النبي ﷺ يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه فقيل له لم تصنع هذا يا رسول الله ، وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فقال : « أفلا أحب أن أكون عبداً شكوراً »[1] ، وقد وافق بذلك أمر ربه الذي أعطاه فأرضاه : « إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ »[2] . فالمصلي في خشوعه وتذلله وفي تعظيمه لربه وتمجيده يحاول فيما يحاول أن يؤدي بعض حقوق الشكر لله على جليل نعمائه، ولا عجب لذلك أن كانت فاتحة قراءته : « الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ »[3] .

والصلاة كما تقرب من الله وتبارك في المصلي معاني الشكر

---

(١) الشيخان .

(٢) الكوثر ١ – ٢ .

(٣) الفاتحة ٢ – ٣ .

والخوف والرجاء فهي تصل المسلم كذلك بكتاب الله . وكثير من المسلمين يكادون يتخذون القرآن مهجوراً لولا الصلاة، لأنها لهم ورد يومي لازم يقرءون فيه سوى فاتحة الكتاب ما تيسر من آي القرآن مما يكون فيه ذكر الآخرة ومواقف الحساب وخبر الجنة والنار ــ موعظة للخائفين والراجين ــ وتعداد نعمائه على العباد لعلهم يشكرون وأوامر الله ونواهيه للطائعين والعاملين.

والصلاة تذكر صاحبها بكل ما في كتاب الله من عهد وميثاق وتدعوه لأن يمسك بالكتاب ويأخذه بقوة : « وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ »(١) ولعل هذا التلازم هو الذي قرن بين تلاوة الوحي وإقام الصلاة وجهين من ذكر الله يدعوان لطاعته واستشعار رقابته وعلمه المحيط : « اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ ، وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ »(٢) .

وكان أوفق لذلك أن تكون قراءة القرآن في الصلاة عن وقوف تمثيلاً لواجب القيام بأمر الكتاب والنهوض بأعبائه وتكاليفه .

والصلاة ثالثاً تصل صاحبها وتذكره بالرسول الكريم ﷺ . فإذا دعا المؤذن للصلاة فشهد برسالة محمد ﷺ تجاوب

---

(١) الأعراف ١٧٠ .

(٢) العنكبوت ٤٥ .

معه مردداً كل قائم للصلاة ثم دعا في ختام الأذان : « اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته »[1] . وكل أعمال الصلاة تقليد لصفة صلاة النبي ﷺ ألفاظاً وحركات استجابة لأمره : « صلوا كما رأيتموني أصلي »[2] . وبعد التشهد والإقرار بالرسالة يدعو المصلي « اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم إنك حميد مجيد »[3] .

٢ ـ عون على الصبر والمجاهدة

من أثر الصلاة كما قدمنا توطيد الإيمان بالله وتنمية الخوف والرجاء والشكر وربط الصلة بالقرآن الكريم وبالرسول ﷺ وإذا قويت أصول العقيدة في نفس المسلم فإنها تدفع للعمل الصالح وللجهاد والصبر .

وقد تقدم الحديث عن أثر الصلاة في تعميق الإيمان بضوابط الأخلاق وزواجر التقوى، وإنما نخص بالحديث هنا دوافع العمل الإيجابي الفعال .

فالعبد قد تحمله مخافة الله على أداء الفروض الأساسية التي يأثم بتضييعها ، ولكن النهضة إلى فضائل الأعمال وعظائم

---

(١) البخاري .
(٢) البخاري .
(٣) الشيخان .

المجاهدات، إنما تنبعث من أسباب شدة حب الله والرغبة في شكره ومرضاته ورجاء فضله العظيم . فالمسلم إذا كان دائم القيام والسجود، لسانه رطب بتمجيد الله، وذهنه حاضر بذكره، وبدنه خاضع بالخشوع له، كان موصولاً بربه، وأعقبه ذلك القرب محبة لله ورغبة في مزيد من القربات، فتهون عليه المشاق في سبيل الله، فيتحرك لكل عمل صالح ويسابق إلى كل فضيلة مما جعل الله زلفى وسبباً لمرضاته .

والعبد الذي يعرف أنعم الله عليه فيقوم لربه بالصلاة حامداً شاكراً يصبح من عهده في حياته كلها أن يسعى ويجد له — يؤدي بعض واجبات الشكر لتلك النعم التي لا يحصيها العد . ولا يفي بها اجتهاد البشر .

والمصلي الذي يرجو رحمة الله . ويزداد إيماناً ببشرياته ودعوته الصادقة بأن يجزي العاملين أحسن الجزاء ، ويضاعف لهم الحسنات ولا يظلمهم مثقال ذرة — يتحرك غير مبال بالمشقة لينال أكمل الإحسان طمعاً في نعيم وجنة خالدة . وإذا أيقن الإنسان بالغيب وصدق بوعد الله فإن إنتاجه وخيره في الحياة لا يكاد يتوقف عند حد ، لأن الرجاء الأكيد يبعث في النفس الطاقات الكامنة ويحشد الإمكانات المعطلة فيتفجر ذلك مجهودات هائلة تصنع في التاريخ عجباً .

وإنما يكسل ويعجز ويجبن الذي لا يؤمن بجزاء غير الأجر العاجل في الدنيا، وهو أجر زهيد قوامه شيء من حظوظ المادة أو الذكر الطيب، بل قليلاً ما يكون أجر الدنيا عدلاً وافياً

بالعمل الصالح وكثيراً ما يتخلف ويخيب الرجاء فيه، لا سيما وأن المجال في النظام الجزائي الدنيوي أفسح للعقاب الرادع عن السوء منه للأجر الدافع للخير ، ومعاني التضحية والفداء التي تدفع الناس أحياناً للعمل لا تبلغ إلا قليلاً من قوة الدوافع المتعلقة برجاء الدار الآخرة وأجرها الثابت المضاعف ونعيمها الخالد .

وتتبارك وتتصل الجهود الضخمة التي تولدها البواعث الروحية عند المصلي، لأنه يتعلم من وحدة القبلة أن يوجه عمله كله لغاية معينة، ولا يتقلب أو يتخبط، فيصبح اندفاعه قوة رعناء مبددة، بل يتقدم في نهضته بانتظام ولا ينحرف عن أهدافه ولا يتحول إلا زلة يستدركها بالإنابة العاجلة إلى الطراط المستقيم .

ويزكي الله المصلي عمله بما يكثر من الدعاء في صلاته ويتوطد أمله في استجابة الله وثقته في توفيقه، فيطرح عن نفسه التردد والارتياب وتزيده تلك الطمأنينة إقبالاً على سعيه واندفاعاً في جهاده وتوكله على الله .

وفضلاً عن معاني الإيمان الفعالة التي تحييها سائر أفعال الصلاة وأقوالها فإن القرآن المقروء فيها يدعو لصالح الأعمال لأنه يوجه المسلم لكل صنوفها ودرجاتها ويقص عليه خبر النبيين والصديقين والشهداء الذين جاهدوا في الله حق جهاده ، ويرسخ في نفسه قواعد الإيمان والتوكل .

وذكر الرسول ﷺ يضع نصب عين المسلم المصلي قدوته الحسنة في الجهاد والصبر ، ويزيده تعلقاً بهديه وتوجيهاته البالغة

واعتصاماً بسنته الرشيدة .

والصلاة بتواليها ودوامها تضمن مدداً روحياً لا ينقطع عن المسلم، بل يتزايد باطراد مجدداً إيمانه بالله وكتابه ورسوله، ومقوياً خشيته وتقواه وشكره وثقته ورجاءه، ومضاعفاً بذلك جهوده الصالحة في سبيل الله . فكلما استهلكت المسلم تكاليف الحياة أسعفته الصلاة بشحنة من الطاقة الروحية تمد له في مسعاه مداً .

ومن أجل هذه الآثار الجليلة للصلاة في تثبيت إيمان المسلم وتوكله وتنمية جده واستعداده للبذل والعطاء والمجاهدة، ومجاهدة المشقات والصعاب، أرشد القرآن إلى الاستعانة بالصلاة على ما يقع من الابتلاء أو يتعين من الجهاد : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ . وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ ، وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ، الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا : إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ، أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ »[1] .

وكان من تربية الله للرسول ﷺ واعداده لاحتمال أعباء

---

(١) البقرة ١٥٣ — ١٥٧ .

الرسالة الثقيلة ، أن فرض عليه قيام الليل : « يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ، نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ، إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا »(١) وتكررت آيات القرآن للرسول توصيه بالصلاة تسلية عما يلقى من الأذى في دعوته وجهاده ، وتثبته في وجه الفتنة : « فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ، وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى »(٢) ؛ « وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ، فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ، وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ »(٣) ، « فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا ، وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا »(٤) .

ولذلك كان الرسول ﷺ إذا حز به أمر فزع إلى الصلاة(٥) ونادى أرحنا بالصلاة يا بلال — يستروح من ضيق الدنيا بقرب الله وسعة رحمته . وكما وجد في الإسراء والمعراج عزاء بمرضاة

---

(١) المزمل ١ — ٥ .
(٢) طه ١٣٠ .
(٣) الحجر ٩٧ — ٩٩
(٤) الإنسان ٢٤ — ٢٦ .
(٥) أبو داود وأحمد .

الله عنه حينما نبذه قومه شرعت له الصلاة يومئذ لتكون له كالمعراج الدائم والقربى المتوالية يفزع إليها كلما ضاق وينعم منها بصفاء روحي يعزيه عن كدورات الحياة وبأنس رباني يسليه عن وحشاتها .

والإنسان إذا وكل نفسه لهواه ولم يعتصم بحبل من الله عرضة لأن تزعزعه تصاريف الحياة وتقلبات الظروف . أما إذا قويت صلته بالله بالصلاة فإن عينه تقر ونفسه تطمئن ويثبت على رشده لا تطح به سراء ولا ضراء : « إنَّ الإنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً إذا مَسَّهُ الشَّرُ جَزُوعاً ، وإذا مَسَّهُ الخَيْرُ مَنُوعاً ، إلاَّ المُصَلّينَ ، الذينَ هُمْ عَلى صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ ... »[1].

فالصلاة عون للمسلم على المصابرة والمجاهدة في كل ظروفه وتجاه كل ضروب الابتلاء، ولذلك كانت الصلاة توجيهاً مفروضاً على المسلمين في عهد الصبر على الاضطهاد في مكة . وهم قلة مستضعفون . وملازمة الصلاة آنذاك إعداد لافراد المسلمين بالقوة الروحية بين يدي مرحلة الجهاد، وتوثيق لوشائج الموالاة والتضامن بينهم استعداداً لمواجهة الجبهة الكافرة، وتثبيت من أن تستحفهم الفتنة : « ألَمْ تَرَ إلى الذينَ قِيلَ لَهُمْ كُفّوا أيْدِيَكُمْ وَأقِيمُوا الصَّلاةَ .. »[2] ، « فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلا تَطْغَوْا إنَّهُ بِمَا

---

(١) المعارج ١٩ - ٢٣ .

(٢) النساء ٧٧ .

تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ، وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ، وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ، وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ »[1] . وكان ذلك التوجيه هو ما وصّى به الله قوم موسى وقد اشتدت عليهم وطأة طغيان فرعون : « فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ، وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ فَقَالُوا عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا ، رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ، وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ،وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتاً وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ »[2] .

وفي مستهل عهد المسلمين بالمدينة جاءتهم الوصية بالصبر على مكايدات أهل الكتاب مقرونة بالوصية بالصلاة : « وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ

---

(١) هود ١١٢ - ١١٥ .

(٢) يونس ٨٣ - ٨٧ .

إيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الحَقّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شيءٍ قَدِيرٌ ، وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ إِنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ »[1] .

ولما عز المسلمون في المدينة ظلت الصلاة كتاباً مفروضاً عوناً على ظروف المرحلة الجديدة، فظروف قيام الدولة تستوجب نهضة المسلمين للدفاع عنها، والصلاة خير ما يعينهم على تبعات الجهاد : « يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ، وَلا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لا تَشْعُرُونَ »[2]. ولم تتخلف الصلاة حتى في ساحات القتال بل شرعت كما شرع سائر ذكر الله عند الخوف لأنها تهب قوة وثباتاً وإقداماً في ذلك الموقف العصيب .

وظروف النصر والعز تعرض الإنسان للدواعي العلو والفخر والإعجاب بالنفس، والصلاة خير ما يسعفه بموجبات التقوى ليكسر بها نشوة التكبر ويجاهد بها نزعة العدوان . والغالب المنتصر قد يرضى عن منجزاته فيقعد عن المزيد أو قد تطغى قوته المادية الظافرة على ضوابطه الأخلاقية ويستبد به سلطانه

---

(١) البقرة ١٠٩ - ١١٠ .

(٢) البقرة ١٥٣ - ١٥٤ .

فيحيله جباراً يعيث في الأرض فساداً، إلا الذين يخشون مالك الملك الكبير المتعال، المؤمنين أن استخلافهم في السلطة ابتلاء من الله طاعته فيه شكر ، وعصيانه كفر وظلم وفسوق ، ومن أجل تثبيت هذه المعاني شرعت الصلاة وشرع الذكر عامة في هذه الأحوال : «الذِينَ إنْ مَكَّنَّاهُمْ في الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالمعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ المُنْكرِ وَلِلهِ عَاقِبَةُ الأمُورِ»[1] ، «إذا جَاءَ نَصْرُ اللهِ والفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ في دِينِ اللهِ أفْوَاجاً فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ، إنَّهُ كَانَ تَوَّاباً»[2] وقد صلى النبي ﷺ ثماني ركعات لدى فتح مكة [3] ومضى فعله ذلك سنة للفاتحين المسلمين .

وخلاصة القول أن الصلاة قربى يستمد منها المسلم قوة إيمان لا يشق عليه بعدها جهاد ، ولا يبالي بما يلاقي من عناء في سبيل الله ، سوى أن حظ المصلي من صلاته في ذلك بقدر ما يحسنها ، فإن أقامها قانتاً خاشعاً أورثته عزماً ماضياً وبأساً شديداً، وان سها عنها ولها فيها لم يجد من ذلك في نفسه إلا قليلاً .

---

(١) الحج ٤١ .

(٢) سورة النصر .

(٣) أبو داود .

صلاة الجماعة تربية اجتماعية كاملة

صلاة الجماعة من السنن التي شرعت شرعاً مؤكداً ولازمت المجتمع الإسلامي فأصبحت من مظاهره البارزة . وقد رغب فيها النبي ﷺ : « صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة »[1]، وشدد على تاركها النكير : « لقد هممت أن آمر رجلا يصلي بالناس ثم أخالف إلى رجال يتخلفون عنها فآمر بهم فيحرقوا عليهم بحزم الحطب »[2] .

وهي سنة مؤكدة ، ولعلها فرض على الكفاية ينبغي ألا تضيعها جماعة من المسلمين: « ما من ثلاثة في قرية ولا بدو ولا تقام فيهم الصلاة إلا وقد استحوذ عليهم الشيطان فعليكم بالجماعة فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية »[3] .

---

(١) الشيخان .

(٢) الشيخان .

(٣) أبو داود .

ومن الجماعة صلاة الجمعة ، إذا نو دي لها وجب على المسلم أن يتهيأ ويسعى إليها، ثم ينصت لخطبتها ويؤديها مراعياً آدابها المسنونة، وقد زجر النبي ﷺ عن تركها فقال: «ولينتهين أقوام عن ودعهم الجمعات أو ليختمن الله على قلوبهم ثم ليكونن من الغافلين »[1] .

ومن الصلوات الجامعة الحافلة صلاة العيدين، من السنة أن يخرج إليهما المسلمون جميعاً كما روت أم عطية عن النبي ﷺ « أمرنا النبي ﷺ أن نخرج في العيدين العواتق وذوات الخدور وأمر الحيض أن يعتزلن مصلى الناس »[2] .

ويجتمع المسلمون كذلك على صلاة الجنازة والكسوف والاستسقاء .

ويستحب في ذلك كله الجمع الأكثر تعميماً لفائدة الجماعة: « إن صلاة الرجل مع الرجل أزكى من صلاته وحده ، وصلاته مع الرجلين أزكى من صلاته مع الرجل ، وما كثر فهو أحب إلى الله تعالى »[3] .

وإن كان هذا هو مكان الصلاة الجامعة وفضلها في الإسلام، فإنما ذلك لأنها طاعة جليلة يخلف الله عنها في الآخرة أجراً زائداً ، وتحدث كذلك آثاراً هامة في حياة المجتمع الإسلامي. ولنحاول بعداً أن نتأمل طائفة من آثارها التربوية النافعة ،

---

(١) مسلم .
(٢) الشيخان .
(٣) أبو داود .

لنقف على بعض الحكمة البالغة في مشروعيتها . والوعي بهذه المعاني يزيد المسلم اقبالاً عليها وانتفاعاً بها ، وإن كانت آثار الجماعة تحدث في حياته حتى لو لم يفقه من معناها إلا أنها تكليف مسنون يؤديه طاعة لله واتباعاً لرسوله تقاه العذاب ورجاء الثواب في دار الجزاء .

١ ـ تضامن الجماعة ووحدتها

إذا نودي للصلاة أمّ المسلمون المسجد من كل ناحية أو تجمعوا حيث اتفق لهم ، فإذا اقيمت الصلاة قاموا متراصين صفوفاً من وراء الإمام . والسنة أن تستوي الصفوف ويلتصق المصلون : « عن ابن مسعود قال كان رسول الله ﷺ يمسح بمناكبنا ويقول: استووا ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم »[1] ، « أقيموا الصفوف ، وحاذوا بين المناكب ، وسدوا الخلل ولينوا بأيدي إخوانكم ، ولا تذروا فرجات الشيطان ، ومن وصل صفاً وصله الله ومن قطع صفاً قطعه الله »[2] . وإذا كان تمام الصفوف وتراصها من كمال الصلاة فلا ينبغي للمسلم أن يشذ عنها فقد روى أن النبي ﷺ رأى رجلاً يصلي خلف الصف وحده فأمره أن يعيد »[3] .

ولا تعتزل النساء جماعة المسلمين،وليس لأوليائهن أن

---

(١) مسلم .
(٢) أبو داود .
(٣) أبو داود .

يمنعوهن الخروج إلى المسجد تنطعاً وفرط حذر : «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله»[1] ، «عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: لا تمنعوا النساء من الخروج إلى المساجد بالليل ، فقال ابنٌ لابن عمر ، لا ندعهن يخرجن فيتخذنه دغلاً فزبره ابن عمر وقال أقول رسول الله ﷺ وتقول لا ندعهن»[2] .

ولما كانت المساجد هي المراكز الروحية الجامعة فقد دعا الدين لبنائها وعمرانها وتطهيرها : «وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً ، واتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ»[3] ، «إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ، وَأَقَامَ الصَّلاةَ وآتى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ»[4] ، «من بنى مسجداً يبتغي به وجه الله بنا الله له مثله في الجنة»[5] . وجعلت للمساجد آداب تحفظ للذين يؤمونها وقار الاجتماع ، ونظافة المكان وطهارته وتمنع الأذى والتشويش : «من أكل من هذه البقلة (الثوم) فلا

---

(١) مسلم .
(٢) الشيخان .
(٣) البقرة ١٢٥ .
(٤) التوبة ١٨ .
(٥) الشيخان .

يقربن مساجدنا حتى يذهب ريحها »[1] ، « من سمع رجلاً ينشد ضالة في المسجد فليقل لا ردها الله عليك ، فإن المساجد لم تبن لهذا »[2] ، « إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع في المسجد فقولوا له : لا أربح الله تجارتك »[3] ، « إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول ولا القذر إنما هي لذكر الله وقراءة القرآن »[4].

وعنى الدين بتوفير الحرية الدينية في المساجد لتسلم لوظيفتها مسرحاً للصلاة والذكر ، فأخزى الله كل من صد عنها أو سعى في خرابها : « وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَائِفِينَ ، لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ »[5] . وشرع الجهاد في سبيل الله لحماية دور العبادة من أجل الشعيرة العظيمة التي تؤدى فيها : « وَلَوْلا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيراً وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ، الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا

---

(١) الشيخان .
(٢) مسلم .
(٣) النسائي والترمذي.
(٤) مسلم .
(٥) البقرة ١١٤ .

الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ المُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ»(١) .

وواضح أن لصلاة الجماعة أثراً بالغاً في تربية المسلمين على التضامن والوحدة،فهي تهديهم بتواليها في اليوم الواحد ، إلى الاجتماع على كل أمر يهمهم ، والتعاون على تدبير شئونهم كافة ، و هي تعلمهم بتراص الصفوف ، أن تكون مواقفهم في الحياة جميعاً كذلك يقومون فيها صفاً واحداً لا يتفرقون في دينهم شيعاً وأحزاباً كل حزب بما لديهم فرحون ، بل إن في تقارب المصلين في الصف وتلاصقهم بالمناكب والأقدام ما يوثق بينهم ذات البين ، فالناس قد يتمايزون في المعاش والسكن وتجعلهم فوارق الحياة والثروة طبقات متباينة،ولكن الصلاة تؤدب المسلمين ألا يتجافى الغني عن الفقير ولا يتباعد ذو الثوب الحسن عن رث الهيئة بل تتقارب أنفاسهم وتلتصق أطرافهم لتعمر بينهم العلائق وتتوطد الصلات .

فالصف يشير إلى أن المسلمين أمة واحدة ، والتداني بالاجسام يذكرهم بتدانيهم في اعتبار العقيدة والروح، ويدعوهم إلى أن يحفظوا ذلك الحال في كل شأن أو زمان ، ولا يجوز للمسلم أن يشذ عن الجماعة كما لا يشذ عن صف الصلاة ، ولا تنعزل النساء بعالم منفصل يتقوقعن فيه ويتخلفن عن ركب الجماعة .

---

(١) الحج ٤٠ – ٤١ .

ولما كان المسجد هو الإطار الذي يضم صفوف المسلمين في صلاة الجماعة كان الأجدر أن يكون مسجداً جامعاً ، وأن تتحد الجماعة وألا تتفرق المساجد بتفرق الأهواء والعصبيات، ولذلك كره من الفقهاء من كره صلاة الجمعة من غير مسجد المسلمين الجامع . والشذوذ بمسجد منفصل دون حاجة تدعو إليه من ضيق المساجد أو بعدها يشبه موقف المصلي الشاذ خلف الصف وقد يكون – بنية الذي يتخذه – مسجد ضرار وتفريق بين المؤمنين : « وَالذِينَ اتخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ المُؤْمِنِينَ وَإِرْصَاداً لِمَنْ حَارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ ، وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الحُسْنَى وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ... »[1] .

والصلة الوثيقة بين صلاة الجماعة وبين معنى التضامن بين المسلمين تتضح في شمول وظيفة المسجد ، فقد كان في عهد النبي ﷺ مصلى للمسلمين وكان كذلك قاعدة لتصريف كثير من شئونهم الاجتماعية سوى ما يدعو للصخب ورفع الأصوات. فقد كان داراً لإدارة الأمر العام فيه يجري القضاء وتقسم أنصبة العطاء الاجتماعي كما كان نادياً للمسلمين ، ومسرحاً لكثير من وجوه الحياة العامة .

ولما كانت صلاة الجماعة بتواليها ودوامها هي عمادالتضامن الاجتماعي للمسلمين وكان المسجد هو قاعدتها ، كان أول

---

(١) التوبة ١٠٧ .

هم النبي ﷺ لدى وصوله المدينة أن يؤسس مسجداً يكون قاعدة للوحدة التعبدية ثم منطلقاً للوحدة الشاملة بين المسلمين ، فلما تم بناؤه انصرف النبي إلى بناء الرابطة الاجتماعية بالمؤاخاة بين أفراد المهاجرين والأنصار ، ثم عمد إلى وحدتهم السياسية فدعمها بكتابة الصحيفة المشهورة التي كانت دستوراً للدولة المدينة .

وتتصل آثار صلاة الجماعة المتقدمة بكثير من توجيهات الدين العامة في شأن الجماعة : « إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ، إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ »[1] ، « من فارق الجماعة فمات ، مات ميتة جاهلية »[2] ، « وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ، وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ »[3] .

وفي تلاقي المسلمين على الصلاة خير كثير — يتعارفون بينهم ويتآلفون، ويقف بعضهم على أحوال بعض فيتجاوبون بالود والتراحم ويصبحون بفضل الصلاة إخواناً متحدين في

---

(١) الأنعام ١٥٩ .

(٢) الشيخان .

(٣) التوبة ٧١ .

بناء اجتماعي متين لا توهنه القطيعة والانعزال ، وتسود بينهم مظاهر الوحدة التي وصفها النبي ﷺ إذ قال : « ترى المسلمين في تراحمهم وتوادهم كمثل الجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى »[1] .

ولا عجب بعد ما قدمنا أن نلاحظ ارتباط معنى التضامن والولاء بين المسلمين بإقام الصلاة لأنها مظهر له وعامل في تأكيده « إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ، وَمَنْ يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغَالِبُونَ »[2] . « مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ »[3] .

وفي صلاة الجماعة كثير من ملامح التنظيم والوحدة التي تقترن بأوضاع القتال في سبيل الله ففيها مظهر الحشر والحشد ومظهر الإمامة والاتباع الدقيق وفيها كذلك التراص في الصفوف وسد الثغرات والتقدم إلى الصف الأول فالأول ، وكذلك شأن القتال : « إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ »[4] .

---

(١) الشيخان .
(٢) المائدة ٥٥ - ٥٦ .
(٣) الروم ٣٢ .
(٤) الصف ٤ .

١ ـ الاستجابة للدعوة الجامعة

كان المسلمون حين قدموا المدينة يجتمعون فيتحينون الصلاة ليس ينادى لها فاهتم النبي ﷺ كيف يجمع الناس لها فقال أنصب راية عند حضور وقت الصلاة ، فإذا رأوها أذن بعضهم بعضاً فلم يعجبه »[١] ، وتكلموا في ذلك فقال بعضهم اتخذوا ناقوساً مثل ناقوس النصارى وقال بعضهم بل بوقاً مثل بوق اليهود وذكروا النار »[٢] ثم اهتدوا أخيراً إلى الأذان ينادي به بلال .

هكذا شرع الأذان فقرر النبي ﷺ فضل التأذين وأجر الداعي إلى الصلاة : « المؤذنون أطول الناس أعناقاً يوم القيامة »[٣] « إنه لا يسمع صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة »[٤] .

وندب للذي يسمع هذه الدعوة التامة للصلاة أن يجاوب المؤذن بمثل ما يقول كأنما هو رجع الصدى للنداء : « إذا سمعتم النداء فقولوا مثل ما يقول المؤذن »[٥] .

وينبغي على المسلم حين يسمع نداء الصلاة أن يلبيه مهما كان جرح الوقت من الليل أو النهار : « لو يعلم الناس ما في

---

(١) أبو داود .
(٢) البخاري .
(٣) مسلم .
(٤) البخاري .
(٥) الشيخان .

النداء والصف الأول ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا عليه ، ولو يعلمون ما في التهجير لاستبقوا إليه ، ولو يعلمون ما في العتمة والصبح لأتوهما ولو حبواً »[1] . وعليه أن يجيب مهما عرضت الأعذار : « بشروا المشائين في الظلم إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة »[2] . وقد استأذن ابن أم مكتوم رسول الله ﷺ أن المدينة كثيرة الهوام والسباع فقال الرسول : « تسمع حي على الصلاة حي على الفلاح فحيهلاً »[3] . واعتذر رجل أعمى أنه لا يجد قائداً إلى الصلاة فرخص له النبي ﷺ في التخلف عن الجماعة ثم لما ولى دعاه فقال : « تسمع النداء للصلاة . فقال نعم . قال فأجبه »[4] .

وأعظم الناس أجراً هو الذي يلبي الدعوة من أبعد المسافات والذي يسبق إلى الحضور : « إن أعظم الناس أجراً في الصلاة أبعدهم إليها ممشى فابعدهم »[5] ، « إذا كان يوم الجمعة وقفت الملائكة على باب المسجد يكتبون الأول فالأول »[6].

وفضلاً عما في أعمال التأذين والإجابة من عبادة وأجر عظيم فإنها تشتمل على معان أخرى فيها تربية للمسلمين على رفع كلمة الإسلام ، وإظهار الدعوة إليه وعلى الاستجابة الناجزة

---

(١) الشيخان .
(٢) أبو داود .
(٣) أبو داود .
(٤) مسلم .
(٥) الشيخان .
(٦) البخاري .

لنداء الإسلام .

فليس الأذان مجرد إعلام بحضور وقت الصلاة ودعاء إلى جماعتها ولكنه كذلك إظهار لشعار الإسلام . فصوت الأذان الذي يشق عنان السماء فيسمع من بعيد إنما ينبيء بأن البلدة التي يدوي فيها مؤسسة على ركن من الإسلام قائمة بشعائره . وقد تقدم أن النبي ﷺ كان يتخذه آية على الإسلام فإذا غزا قوماً انتظر الصبح فإذا سمع الأذان كف عنهم وإلا أغار»[1] .

وقد أصبح هذا الصوت الذي يجلجل في الآفاق مظهراً إسلامياً هاماً كما أصبحت المآذن علماً على مدائن الإسلام إذا رآها الوافد إلى البلدة استأنس بها ووجد أمناً وسلاماً .

وقد هدى الله المسلمين إلى أن يتخذوا صوت الإنسان داعية للصلاة لا راية أو ناراً ، ولا صوت جرس أو قرن ، وبذلك تميز المسلمون بمظهر مستقل موافق لسائر هدي الدين في تجرد أهل الإسلام عن تقليد الآخرين في ملبسهم ومسلكهم ومظهرهم كله بل في مذهبهم في الحياة جميعاً .

وأذان المسلمين ليس جماداً ظاهراً أو داوياً وإنما هو منطق بشر وكلام بيّن يعلن على الملأ شهادة الإسلام الأساسية بالله الواحد وبمحمد الرسول ويعلي كلمة الله الكبير وينادي جهاراً إلى الصلاة سبب الفلاح .

ويتعلم المسلمون كثيراً من مجاوبة الأذان بمثل ما يقول وتلبية دعوته برغم عوائق البعد والظلام — يتعلمون أن يلبوا

---

(١) البخاري .

داعي الله مهما تجاذبتهم دواعي اللهو والهوى والمصلحة العاجلة. ويتصل هذا المعنى بما تقدم في شأن التزام القبلة والقنوت تجرداً لله وعدم الالتفات أو الالتهاء عن أمر الله بأمر الدنيا . فجملة الأثر التي تحدثه هذه المعاني في الصلاة أن تكوّن من المسلمين رجالاً يقدمون حق الله على كل حق ،ويقدرون خشيته ورجاءه فوق كل اعتبار أو حساب : « في بُيُوتٍ أذِنَ اللهُ أنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ والآصَالِ رِجَالٌ لاتُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَإقَامِ الصَّلاةِ وَإيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ القُلُوبُ وَالأبْصَارُ ، لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيرِ حِسَابٍ »[1].

وإن أعظم ابتلاء للإنسان أن يكون غارقاً في هم دنياه ولهوها تحيط به زينتها الطاغية وتكاد تحتكر كل حواسه ومشاعره فيطرق سمعه مرات في كل يوم وفي غمار تلك المشاغل صوت يذكره بالتجرد لله الواحد الكبير ، ويدعوه إلى أمر الله وسنة رسوله ويحرضه على تجاوز رغائب الدنيا والإقبال على فلاح الخلود . ولئن تثاقل المسلم عن تلبية نداء الجماعة في الصلاة الراتبة فهو فرض عليه ألا ينخذل يوم الجمعة عن موكب المجيبين لنداء الله : « يَا أيُّهَا الذِينَ آمَنُوا إذا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الجُمُعَةِ فاسْعَوْا إلى ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا البَيْعَ

---

(١) النور ٣٦ – ٣٨ .

ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ، وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِماً قُلْ مَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ »[1] .

فالذين يجيبون الداعي للصلاة طارحين ملاهيهم ومنافعهم الدنيا فارين إلى مناجاة الله تحدوهم تقواه والرغبة في فضله العميم أولئك هم الذين يسارعون كلما دعا داعي الله ويلبون كل نداء للعمل الصالح ويهبون كلما أذن مؤذن لأداء الواجب طامعين في الفلاح الموعود غير مبالين ببعد الطريق ومشقاته .

وكما يهرع المسلمون مجيبين مؤذن الحج آتين من كل فج عميق نحو مركز واحد مخلفين أهلهم ومصالحهم ينطلق المصلون لدى الأذان يسعون إلى مركز العبادة من كل طريق . وكذلك يكون المسلم في كل حياته رهن دعوة الخير يهب مسارعاً إلى حيثما يوجه الله ويهدي الرسول ليس أصم مختوماً على سمعه ولا قاعداً مع الخالفين : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ[2] ... » .

وكلما بعد المسلمون عن صراطهم المستقيم وتخلفوا عن

---

(١) الجمعة ٩ – ١١ .

(٢) الأنفال ٢٤ .

غاياتهم قام فيهم دعاة الاصلاح يرددون صيحات التجديد وندبات النهضة ، فأقرب المسلمين للأقبال والتلبية من اعتادوا مجاوبة الأذان وأدناهم للإدبار والتولي تركة صلاة الجماعة ومضيعوها لأن من لم يعهد إجابة النداء للصلاة الجامعة ومن اعتذر عنها ببعد الدار وزحمة المشاغل هو الذي قد يتخلف إذا نودي لأمر جامع من قلة همه بشئون المسلمين العامة واستشعاره لتضامنهم ووحدتهم ومن شحه بنفسه وماله إذا وجب العطاء وتعلله بالمعاذير إذا وجب البذل والإقدام .

وهذه الأمة التي يظهر فيها شعار الاسلام ويعلو هتافه والتي ينادى فيها بالصلاة الجامعة فتلبى وتجيب والتي لم يقعد بها وحل التقاليد الجاهلية ، ولا قبضة الولاءات العصبية ولم تصرفها نوازع الأهواء الوضعية ، ولا دواعي المصلحة العاجلة من أن تستجيب لداعي الله ولنداء رسوله الكريم — هذه الأمة جديرة بأن تسمى « أمة الإجابة » .

٣ — المساواة بين المسلمين

يقوم المسلمون في صفوفهم متراصين مستوين إجابة لسنة الرسول الكريم ﷺ : « سووا صفوفكم فان تسوية الصف من تمام الصلاة »[1]، ويتقاربون في قيامهم حتى تلتقي المناكب والأقدام ويأخذ السابقون موضعهم من الصف الأول فالأول وليس لمتأخر أن يعمد إلى الصفوف فيتخطى الرقاب ليتصدر

(١) الشيخان .

الناس : « جاء رجل يتخطى رقاب الناس والنبي ﷺ يخطب يوم الجمعة فقال له النبي ﷺ : « اجلس فقد آذيت »[1] ولا يجوز للمرء في الصلاة – أو في غيرها – أن يقيم الرجل من مقعده ويجلس فيه »[2].

وهذه الآداب في لقاء المسلمين على الصلاة الجامعة تشيع بينهم المساواة فلا يجنح منهم أحد للتميز عن مقام سائر المسلمين بمكان مستقل بارز كبراً واستنكافاً عن وضع إخوانه ، ولا يتجافى غنى عن فقير ولا وجيه عن وضيع ، بل يتجاورون ويتقاربون ويستشعرون تماثلهم ويطرحون الفوارق بينهم ويقومون في أوضاع الحياة جميعاً متساوين كأسنان المشط الواحد.

ويتعلم المسلمون التساوي في الفرص والحقوق الأساسية فلا يترع القوي حق الضعيف ظلماً ولا يتعدى على الآخرين ليفوز بامتياز لا يؤهله له كسبه المشروع .

وليست المساواة وضعاً سلبياً يضع القسط ويمنع التظالم والاستكبار والتفرقة ولكنها كذلك – وبفضل الصلاة – استشعار لوحدة الأصل والمبتدأ ، ولوحدة المذهب والطريق ، ولوحدة الغاية والمنتهى ، واستحقار لفوارق النسب واللون واللسان ، ولحظوظ المال والجاه ، ولاختلاف الرأي في غير الدين ، وهي كذلك عاطفة ود وطيد وإخاء صادق بين المسلمين تأتلف به النفوس وتنكسف الفوارق والخلافات .

---

(١) أبو داود .

(٢) البخاري .

٤ ـ الإمامة

صلاة الجماعة يقودها إمام يتقدم الصفوف فيصلي ويصلي الناس بصلاته . ويتم اختيار الإمام بتوخي الفضل في القرآن والفقه والسبق : « يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله فإن كانوا في القراءة سواء فأعلمهم بالسنة فإن كانوا في السنة سواءفأقدمهم هجرة ، فإن كانوا في الهجرة سواء فأقدمهم سلماً « سناً » ولا يؤمّن الرجل الرجل في سلطانه ، ولا يقعد في بيته على تكرمته إلا بأذنه »[١] .

والحق للمصلين في اختيار من يقدمونه للإمامة ، ولأهل المسجد ان يختاروا إمامهم الراتب فإن اختلفوا وقع الأمر لمن يرشحه جمهورهم الأغلب وليس لامرىء أن يتصدى للامامة على كره من المصلين : « ثلاثة لا تقبل منهم صلاة ، من تقدم قوماً وهم له كارهون ... »[٢] ، « ثلاثة لا تجاوز صلاتهم آذانهم .. وإمام قوم وهم له كارهون »[٣] .

فالإمامة ركن في صلاة الجماعة،ويختار لها الإمام على أساس من رضا المصلين، وليست منصباً دينياً يحتكر لطبقة من « رجال الدين » وإنما هي وظيفة يقوم بها أي مسلم ، ويتوخى فيها استيفاء كفاءة معينة يكون بها أولى لأداء واجبات قيادة الصلاة .

---

(١) مسلم .
(٢) أبو داود .
(٣) الترمذي .

ومبدأ الإمامة هذا إنما يوحى للمسلمين في شأنهم كله وجوب إقامة إمام أو اتخاذ قيادة إسلامية تتولى تنظيم صفوف المسلمين ، وتسويتها ورعاية وحدتهم وسد الثغرات بينهم ، وتتعهدهم بالتوجيه والنصح — كما يفعل الخطيب في الجمعة — وتكون لهم قدوة يتبعونها في القيام بطاعات الله كلها . فإذا ضيع المسلمون أمر الإمامة والقيادة في شئونهم الاجتماعية أو السياسية أو الجهادية ، فإن أمرهم العام إلى ضياع ، إذ تتعطل كل الواجبات الكفائية التي تقوم بها الجماعة كرد المظالم وبسط العدالة وتطبيق الشريعة والجهاد في سبيل الله ولا يبقى من الدين إلا الفروض العينية الفردية كما يصلي الأفذاذ من دون جماعة وإمامة .

وقاعدة الاختيار لإمامة الصلاة هي قاعدة الاختيار للإمامة الكبرى فلا مجال للوراثة فيها كما هو شأن الملوك ، ولا التسلط والاستلاب كما هو شأن الجبابرة . وإنما يختار إمام المسلمين بالرضى والمشورة فإذا اختلف عليه المسلمون كان الحق لمن وقع عليه اختيار السواد الأعظم .

وليس مناط الاختيار هو الهوى والقرابة وإنما هو توخي شروط الكفاءة للوظيفة التي سيضطلع بها الإمام أو القائد ، فإن كانت الصلاة فهي إجادة القرآن وفقه السنة والسابقة في الدين ، وإن كانت الإمامة الكبرى فهي القوة على أعبائها ، وتقوى الله في أمانتها. فإذا وقع الخيار على مسلم لم يكن بعدها مجال للمدافعة، وإنما يجب على الإمام المختار الإقدام على رعاية أمر المسلمين

العام وتوحيدهم وإحاطتهم بنصحه وحسن سياستهم وقيادتهم ووجبت له عليهم الطاعة والاتباع .

وإمام المسلمين الأكبر محكوم في تصريفه الأمور بأحكام الشريعة دستوراً ليس له أن يتجاوزه ولا طاعة له فيما وراءه ، إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق وهو ملزم بأن يراعي تجاه رعيته آداباً معينة ،منها أن يجتهد لهم وينصح وألا يستأثر عليهم ولا يمتاز ولا يشق أو يفرط أو يحملهم على ما لا يطيقون أو يتكبر عليهم ويحتجب : « ما من أمير يلي أمور المسلمين ثم لا يجتهد لهم وينصح لهم ، إلا لم يدخل معهم الجنة »[1] ، « اللهم من ولي من أمر أمتي شيئاً فشق عليهم فاشقق عليه ، ومن ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فارفق به »[2] .

وصلاة الجماعة على ما فيها من العبادة والفضل تربية لأئمة المسلمين وإشاعة للأعراف الصالحة في مجال القيادة العامة . فإمام الصلاة مقيد باتباع سنة الصلاة ليس له بحق الإمامة سلطة في الابتداع ، فهو لا ينتظر إذا تأخر عن إدراك الوقت المعهود للصلاة بل يقدم المصلون من يصلي مكانه ، وهكذا فعل الصحابة لما تأخر عليهم النبي ﷺ في الخروج [3] . وهو كذلك لا يتابع على الزيادة في حدود الصلاة وإنما يرد إلى الحق بالتسبيح والتذكير ، ومن حق المأمومين على الإمام ألا يعلو عليهم : « إذا أم الرجل

---

(١) مسلم .
(٢) مسلم .
(٣) الشيخان .

القوم فلا يقم في مقام أرفع منهم»[1] وألا يستأثر عليهم بدعاء: «ثلاث لا يحل لأحد أن يفعلهن ، لا يؤمّن رجل قوما فيخص نفسه بالدعاء دونهم ، فإن فعل فقد خانهم .. »[2] وألا يطول عليهم في الصلاة حتى يحرجهم ويثقل عليهم — وذلك حد لازم إذا تجاوزه اعتزلوه : «جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال إني لأتاخر عن صلاة الصبح من أجل فلان مما يطيل بنا ، فما رأيت النبي غضب في موعظة قط أشد مما غضب يومئذ فقال : يا أيها الناس ان منكم منفرين ، فأيكم أم بالناس فليوجز فإن وراءه الكبير والضعيف وذا الحاجة »[3] ، وكذلك انحرف رجل عن إمامة معاذ فصلى وحده لما رأى معاذا افتتح بالبقرة وشكا إلى النبي ﷺ فعاتب عليها معاذا »[4] .

فصلاة الجماعة تربي المسلمين على العلاقات الرشيدة بين الإمام والمؤتم، فإذا حفظوا تلك الصلاة ووالوها استقرت أحكام تلك القيادة وآدابها في وجدانهم ، وصلح بها شأنهم كله تعبداً أو اجتماعاً أو سياسة عامة، وحفظتهم صلاتهم من الانحراف وأمرتهم بالمعروف في ذلك كله .

وتكاد تتفق أحكام إمامة الصلاة ، وأحكام الإمامة الكبرى في هديها العام وفي تفاصيلها، وذلك دليل على تكامل هذا الدين

---

(١) أبو داود .
(٢) الترمذي وأبو داود .
(٣) مسلم .
(٤) الشيخان .

واتساق أحكامه في كل جوانب الحياة ـ ذلك أنه من أصل واحد، ولو كان من عند غير الله لوجد فيه اختلاف كبير، ولو كان من وضع البشر لاعتراه الترقيع والتجزئة. وأنه خطاب شامل للمسلم في كل نواحي حياته، لا انفصام فيه بين قيم الحياة الخاصة والعامة، ولا انفصال بين أوضاع التعبد وأوضاع الحكم، وإنما تحيط تعاليمه بالإنسان وتنسجم في نهج واحد ليسلم وجهه وعمله كله لله وحده بلا شريك، وتكون صلاته ونسكه ومحياه ومماته لله رب العالمين.

٥ ـ الائتمام

يأتم جماعة المصلين بإمامهم فيصطفون خلفه يصلون بصلاته ويتبعونه فيها ويذكرونه إذا سها. فأعمال الصلاة لا تسقط عن المؤتم إلا ما يكون من إنصات لما يسمع من قراءة الإمام، لكن عليه أن يقتدي بإمامه فلا يساويه ولا يسابقه في موقف ولا ينصرف قلبه من الصلاة ـ كما وصى بذلك النبي ﷺ: «أيها الناس إني إمامكم فلا تسبقوني بالركوع ولا بالسجود ولا بالقيام ولا بالانصراف»[1]. فينبغي أن يتريث المصلي بإمامه حتى يتم الركوع أو السجود أو الرفع ثم يأتي بعده بنحو ذلك إيفاء لمقتضى الاتباع، وهكذا كانت سنة اتباع الرسول ﷺ «لم يحن أحد منا ظهره حتى يقع النبي ﷺ ساجداً ثم نقع سجوداً بعده»[2]. وحيثما أدرك المصلي الإمام في أحوال الصلاة كان

---

(١) مسلم.
(٢) البخاري.

عليه أن يصنع مثل ما يصنع ويمضي في سائر الصلاة معه فإذا فرغ الإمام وسلم أكمل ما فاته .

ويتجاوب المأموم مع إمامه فإذا قام الإمام خطيباً لزمه أن يستقبله وينصت لما يقول ، فإذا قام مع القائمين للصلاة انصاع لاشارة الإمام في تسوية الصفوف وإذا كان في قراءة الإمام دعاء قال آمين وإذا قال الإمام سمع الله لمن حمده ، حمد هو الله حمداً كثيراً .

وإذا سها الإمام فأخطأ في صلاته ذكره المأموم بالتسبيح أو أبان له بكلام موجز ، فقد روى أن النبي ﷺ صلى رباعية فسلم من ركعتين ثم رأى جذعاً في قبلة المسجد فاستند إليه مغضباً ، وفي القوم أبو بكر وعمر فهابا أن يتكلما وخرج سرعان »[1] الناس فقالوا قصرت الصلاة ، فقام ذو اليدين فقال يا رسول الله أقصرت الصلاة أم نسيت ؟ فنظر النبي يميناً وشمالاً فقال ما يقول ذو اليدين ؟ قالوا : صدق لم تصل إلا ركعتين فصلى ركعتين وسلم ، وسجد للسهو »[2] .

وجملة شأن المؤتم مع الإمام أن يراقبه فيتابعه على أعمالها الصحيحة ويجاوبه أو ينصت له في أقوالها المهجورة ويذكره إذا سها في الصلاة .

وفي هذه الآداب التي يتعبد بها المسلم في كل جماعة

---

(١) في القاموس – سرعان الناس أوائلهم المستبقون الأمر، وبضم السين واسكان الراء جمع سريع ككثيب وكثبان .

(٢) الشيخان .

يشهدها تربية له تنفعه في سائر علاقاته الاجتماعية لا سيما في موقفه من أميره . وفي هذا تتوافق أيضاً أحكام الائتمام في الصلاة بأحكام سلوك الرعية مع الأمير .

فليس للمسلمين أن يتكلوا على قائدهم ليقوم دونهم بأعمال الإصلاح ويضطلع بالنهضة وإنما تصلح الأمة وتنهض إذا كان قادتها قدوة حسنة وتجاوبت معهم الرعية بأسرها فنحت نحوهم بجهودها جميعاً ، وأسهمت بطاقاتها الفعالة كافة ، في تحقيق الغايات العامة .

وعلى الرعية طاعة الإمام في المعروف فلا يبادرونه بعمل غير مأذون، وإذا كانوا معه في أمر جامع لم ينصرفوا أو يشذوا من دونه ولم يخالفوه فيما أمر : «على المرء المسلم السمع والطاعة»[1]. بيد أنها طاعة محدودة بحدود الشرع مصحوبة بالوعي والمراقبة، فعلى المسلم أن ينصح لإمامه إذا رأى منه شيئاً يكرهه ليرده إلى الحق بالإشارة والتذكير .

وفي الصلاة تربية على الجرأة في إسداء النصح للإمام ومراقبة حدود حقه في الإمامة فلما تأخر النبي ﷺ مرة وقدموا عبد الرحمن بن عوف للصلاة أدركهم النبي ففزعوا بعد سلامهم بمرأى الرسول يكمل ما فاته، فلما قضى أقبل عليهم ثم قال أحسنتم »[2] ، ولما سها الرسول فهابه كبار الصحابة أن يكلموه انبرى ذو اليدين فذكره فتذكر كما تقدم ، وكذلك : « الدين

---

(١) الشيخان .

(٢) مسلم .

النصيحة .. لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم »[1] ، « وأفضل الجهاد كلمة عدل عند إمام جائر »[2] .

وفي الصلاة كذلك توجيه لإحاطة إمام المسلمين بحاشية من الرجال الصالحين هم مجلس شوراه يصوبونه بالنصح ويخلفونه في الشئون العامة كما يلي إمام الصلاة الراشدون من المصلين يسبحون له إذا سها ويفتحون عليه إذا التبس عليه قرآنه وتكون فيهم خلافته إذا خلا مقام الإمامة : « ليلني منكم أولوا الاحلام والنهى »[3].

وخلاصة القول أن صلاة الجماعة — إلى جانب أنها عبادة مباشرة — تذكير للمسلم بتعاليم الإسلام في العلاقات العامة وممارسة فعلية تعمق في نفسه معانيها وتروضه على الالتزام بها من تلقاء نفسه وبذلك تتكامل أعماله على نهج واحد حتى تكون حياته كلها عامرة بالخير والرشاد لايعتورها قصور ولا اختلاف.

---

(١) مسلم .
(٢) أبو داود .
(٣) مسلم .

خسران المسلمين بإضاعة الصلاة

« الصلاة عماد الدين من أقامها
فقد أقام الدين ومن تركها
فقد هدم الدين » (أثر)

لقد ضيع المسلمون إلا قليلاً فريضة الصلاة على عظيم قدرها وفضلها في الدين . فمنهم من يتركها ويعطل فرضها جملة واحدة ، ومنهم من يقطعها حيناً من الدهر ثم يعود إليها عند حجه أو صومه أو حين تعصره أزمة مرض أو حاجة فيرق قلبه للدين ، ومنهم من ينافق بها فيهملها في خلوته ويظاهر بها في الملأ . وقد شاعت هذه الظواهر في كل قطاعات المجتمعات المسلمة سواء في ذلك الأوساط الجاهلة التي تمثل انحطاط المسلمين وتخلفهم والأوساط المتعلمة التي ساد فيها الانحراف بأثر الحضارة المادية .

ومن المسلمين طائفة ما تزال تبني المساجد وترتادها وتؤدي الصلاة، ولكنهم لا يقيمونها ولا يتمونها ، ولا يحسنون ركوعها ولا خشوعها ، بل يمرون عليها بمنطق رتيب يجري على اللسان والقلب لاهٍ ، ويتحركون بخفض ورفع لا ينطوي على احساس، والصلاة عند كثير منهم مظهر وعادة يلتزمونها اعتباراً للمجتمع وطقوس وأشكال فرع عن تقاليد اللبس والسلوك .

وتضاءل العلم بالصلاة فمن جاهل مطبق لا يفقه مبادىء الطهارة ولا يعلم من الصلاة إلا صورة حركاتها وشيئاً من قراءة، ومن متعلم يسرد فرائضها ويعدد سننها ولا يدرك مضمونها الكلي ولا يفهم معنى أذكارها ولا مدلول أركانها ، وأدى ذلك إلى الجهل بقدرها وأثرها، فالذي تركها زاهد فيها لذلك، والذي يجريها قد يؤول إلى تركها ، والذي مداوم عليها لا يرعاها حق الرعاية .

وقليل من المسلمين من يخشع فيها ، ويحفظ حقها في النيات والأقوال والأفعال ويفقه معانيها ويدرك آثارها في نفسه وحياته فيزداد بالتجربة إيماناً واحساناً .

ولما كانت الصلاة — على ما تقدم بيانه — ذات أثر عريض في حياة الفرد والمجتمع ، وتكاد تتصل بكل معاني الدين وتعاليمه، فإن ضياعها كان سبباً في أغلب مظاهر الانحطاط عند المسلمين. وصحيح أن هوان المسلمين في موازين الدنيا والآخرة مرده إلى أسباب شاملة لا ترجع إلى عامل واحد وانهم نسوا كثيراً مما ذكروا به ، وأن وجوه تقصيرهم تتداعى فلا يفرطون في

ناحية إلا انتهوا إلى التقصير في نحو آخر لتكامل أحكام الدين وترابطها – لكن – مهما يكن ذلك – فإن لإضاعة الصلاة مكاناً كبيراً بين أدواء المجتمع المسلم، لأن الصلاة أم العبادات فيها من كل عبادة شيء، ولأنها قاعدة التكاليف – تحفظ الوجهة والاستقامة لكل عمل صالح، وتبعث الدوافع للانطلاق الرشيد – ولأنها نبع الإيمان الأول بها يتروى المؤمن من معاني الإيمان، ولذلك جعلها القرآن كما قدمنا رمزاً لكل طاعات الإسلام العملية التي تنفذ عقيدة الإيمان في واقع الحياة : « فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى »[1] وأمر بها في سياق أحكام العلاقات الزوجية ، والعلاقات المالية[2] وأوردها في كل بيان مفصل ذكرة لصفة المؤمنين وعملهم الصالح . ولذلك أيضاً جعلها الرسول ﷺ كما أسلفنا أول أعمال الإسلام وأجلها فهي الأساس لطاعة الله عموماً وقاعدة الخضوع لاحكامه .

وهذا الفضل الذي تتميز به الصلاة يجعل لها بعد العقيدة وضعاً مركزياً في الدين، لأنها تؤثر في حياة المسلم كل الآثار الواسعة التي تقدم بيانها، ولأن عواقب تركها أيضاً تنتظم كل نواحي الحياة ، فإذا ضيّعها المسلم كان لما سواها أضيع، وإذا فسدت سرى الفساد في سائر عمله، وإذا أساء فيها انبسطت آثار السوء في أمره كله .

وإذا ثبت لوجه عام أن أسباب انحطاط المسلمين شاملة

---

(١) القيامة ٣١ – ٣٢ .

(٢) اقرأ ان شئت آيتي ٢٢٨ و ٢٧٧ من سورة البقرة .

تتكامل وتتفاعل بصورة تجعل من كل معصية يقترفونها عاملاً في خسرانهم ، ومدعاة لمزيد من وجوه التولي والتردي – فإن إضاعة الصلاة بوجه خاص حلقة تتسلسل من سائر المعاصي وإليها، وتتصل عموماً بكل عناصر الداء الذي أصاب المسلمين، وتكاد أعراض بعض عللهم ترتبط في شدتها ارتباطاً مباشراً بحظهم من الصلاة .

فالمراقب لشأن المسلمين بين الأمم يجد أنهم قد فقدوا كثيراً من الصفة التي تميزوا بها والذاتية التي برزوا بها من دون سائر الناس . فأنت ترى المسلم وقد حال مظهره وأصبح يحكى مظهر الكافر الذي يليه ، وتنزل بالبلد المنتسب أهلها للإسلام فلا تكاد تشاهد ما يميزها عن البلاد الأخرى . وقد رأينا في الصلاة أنها السمة المائزة لأهل الإسلام، وأنهم يتماثلون بها ويتعارفون ويتميزون بها، ويستقلون ويبرزون أنموذجاً أصيلا يقوم بين العالمين داعياً بصورته إلى الإسلام . وكان ينبغي وقد تلاحم العالم وانتشرت أسباب الاتصال الوثيق بين الأمم أن يكون ظهورنا بالصلاة مؤكد الأثر في تذكيرنا بذاتيتنا المشتركة ، وفي تنبيه الناس إلى اختلافنا عنهم بالصلاة وفي حملهم على تعرفه والوقوف على فضائله .

لكن بنسيان الصلاة ذاب المسلم في وسطه، فالذي يعيش في دار الكفر التحق في مظهره كله بأهلها، والذي بقي في بلاده طغت عليه مظاهر الحياة الكافرة التي استبد أصحابها ببلاد المسلمين، وامحت بذلك شخصية المسلمين المتميزة، وأصبح كل

شعب منهم تبعاً للذي تغلب عليه من الملة الكافرة الا بالعصبية القومية التي ألبسناها ، وهكذا تفرق المسلمون بتفرق المشارب التي تحكمت فيهم والشعوب التي قلدوها، واضمحلت بينهم المظاهر المشتركة والمبادىء الجامعة،ثم لم يعد في أوضاعهم ما يضرب للناس المثل أو القدوة أو يدعو للإسلام .

ذلك ولو ثاب المسلمون لصلاتهم لكانت إحدى العوامل الهامة في جمع شتاتهم من جديد بمظهرها الواحد ، وتأكيدها للالتزام بسائر المظاهر الإسلامية وتعميقها لمعنى التميز والاستقلال، فيقبل بعضهم على بعض إخوانا مؤتلفين ويشهرون على العالم ذاتية خاصة ويظهرون له خير أمة أخرجت للناس .

غير أن المسلمين ــ أو جلهم ــ على ما بهم من مسخ الشخصية ضلوا عن قبلتهم فأصبحوا بلا سمة ولا اتجاه . وقد كانوا في عهد حفظ الصلاة يتعلمون منها تحري القبلة المستقلة التي ولاهم إياها الله، فيلتزمونها بلا انصراف ولا انحراف ويهتدون بذلك إلى الصراط المستقيم والشريعة التي جعلهم عليها الله ليستمسكوا بها، ولا يتبعوا أهواء الذين لا يعلمون. ثم ضيعوا الصلاة فضاعت عنهم قبلة الرشاد ، فمنهم من لا يكاد يفقه شيئاً يضل كالأنعام ويخبط خبط العشواء، ويتحول في مذاهبه فتذهب جهوده هدراً، ومنهم من تستخفه المذاهب الوضعية فينزع نحو الغرب أو الشرق ويتذبذب في ذلك، فهو كل يوم في شأن يهتف مع هذا ثم مع ذاك ويفر من ظلام مذهب إلى ظلام الآخر .

وهكذا اضطربت مناهج المسلمين بعد ضلالهم عن قبلة

الإسلام وصراطه، وهاموا على وجوههم تأبين تتنازعهم الثقافات وتتقلب بهم الأهواء المحلية والمستوردة، فانبت سعيهم نحو النهضة لأنهم لم يثبتوا على هدف أو طريق، وتفرقوا على السبل والشعاب، وتشتت كلمتهم لأنهم لا يعتصمون بحبل واحد فتشاكوا وفشلوا وذهبت ريحهم .

وإذ تجاذبت المسلمين المنازع وتفرقت بهم المناحي، تمزق كيانهم وتزعزعت قيمهم، ولم يعد للوجود في أنفسهم معنى واحداً، بل قسموا حياتهم أشتاتاً وجعلوا دينهم عضين . ولو أنهم حفظوا الصلاة لهدتهم إلى أن العبادة لا تنفصل من الحياة، بل تتخلل الأعمال فتنفح فيها كلها طبيعة روحية متسقة، ولتثبتهم على وجهة واحدة يستقيمون عليها بكل مساعيهم، ولتعمقت فيهم عقيدة التوحيد، فصار نهجهم في كل جوانب الحياة قاصداً وجه الله لاتنشق الحياة الاجتماعية العامة عن الحياة الخاصة، ولا الدين عن السياسة، ولا تنحصر عبادة الله في زاوية واحدة .

ولكن المسلمين اليوم قد عزلوا الدين عن الحياة وتأثروا بأفكار أهل الغرب وتجاربهم التي انبثقت عن تاريخ خاص غلبت فيه على دينهم الطبيعة الوصفية والأهواء البشرية، فأصبح مذهباً جزئياً غير شامل لمقاصد الحياة كلها ، وظاهرة عصرية غير قابلة للبقاء على تقلب الظروف ، وتأثر بجنوح الإنسان للاستسلام لحكم التقاليد وللنزول على هوى السلطان حتى ينسى حكم الله في العلاقات العامة ثم تضمحل معاني الدين الفعالة في نفسه .

ولو أن المسلمين استعانوا بالصلاة الواعية الخاشعة لذكرتهم ما يستعيدون به تصورهم الكامل للدين ، وتطبيقهم الشامل لتعاليمه،فإن في تواليها ودوامها — كما أسلفنا — اشاعة لمعنى العبادة في الحياة كلها ،وإن في قبلتها التوجه الكلي إلى الله والاستقامة التامة بلا ميل ولا إدبار ، وإن في قنوتها إسلام مطلق وانصراف عن كل هم غير متصل بالله — وكل تلك معان تعصم المسلمين من الشرك العظيم الذي وقعوا فيه بصرف حياتهم العامة عن الله وبنقض كثير من عرى الدين ، والأخذ ببعضه دون بعض .

وتعطيل الشريعة في حياة المسلمين العامة مظهر كذلك لجنوحهم لمعصية الله والتولي عن طاعته . وقد استشرت مظاهر أخرى لذلك العصيان في واقع المسلمين وفشت فيهم صفاة الكفر وأعمال الجاهلية ، وهم يزعمون أنهم ما زالوا عباداً لله أتباعاً لرسوله . وجرهم إلى المعاصي أن كثيراً منهم لا يركعون لله ولا يسجدون فما عهدوا تطويع جوارحهم لطاعة الله ، وأن منهم من يصلون فلا يتمون أركان الصلاة ، ولا يستشعرون معنى الاقتداء الدقيق بعمل النبي ﷺ وتتحرك ألسنتهم وجوارحهم بأذكار الصلاة وأفعالها فلا يأتون ذلك عن طوية منفعلة بالخضوع والانكسار لله، ولا يحسون جاله من الذل والطاعة لدى الصلاة حتى يبقى منها أثر يعينهم على الطاعة في كل مجال . وقد أصبح الدين عند كثيرين دعوى لسان يتمرد عليها صاحبها بعمله فهو لا يجهل ربه ولكنه يفسق عن أمره ، ويعرف مكارم الأخلاق ويقترف خبيثها حتى أحاطت الذنوب بعامة المسلمين وزين لهم

سوء عملهم ، فما تعظهم بعد نفس لوامة ولا تنفعهم موعظة المنذرين .

ذلك أنهم لا يصدقون الذل لله في الصلاة ، فلا تورثهم صلاتهم خوفاً من الله، ولا يخلصون فيها الاستغفار فلا تعقبهم حب الإنابة، وتعود التوبة بعد التوبة ليسدوا على الشيطان الثغرات قبل أن يستحوذ عليهم ، وليكملوا نقص دينهم قبل أن تقسو قلوبهم ويحال بينهم وبين الهدى فلا يجدون سبيلاً إلا القهقرى خائبين .

وكل هذه الأدواء وجوه من ضعف الإيمان، فترك الصلاة يقطع المسلمين عن أصول العقيدة، فيهجرون القرآن وينسون الرسول ويغفلون عن الله ويتباعد ما بينهم وبينه فلا قربى بسجود ولا زلفى بدعاء ، ولا ذكر للدار الآخرة . وإذا انبتت هكذا الصلة بأصول الإيمان نفدت طاقة المسلمين وهان أمرهم ، وكيف يقوى على العمل الصالح من خمدت في نفسه دواعي الإيمان بالله ودوافع الجهاد في سبيله حباً لله وشكراً لنعمائه ورجاء لنعيمه الموعود ، وأنى لمتضائل العقيدة أن يصبر على البلاء وينهض للمهمات ويتقدم للبذل عفواً وعن طيب خاطر مرضاة الله وابتغاء أجره المضاعف المقيم .

فلا عجب مع زهادة حظ المسلمين من الصلاة أن ضعفت هيبة المسلمين وشدة بأسهم ، وأورثوا حب الحياة وكراهية الموت فتداعت عليهم الأمم بالعدوان ، وطمع فيهم العزيز والذليل وهم لا يدفعون عن حرمة ولا ينالون إلا أقل البلاء ،

وقد أقعدهم العجز والكسل عن الانتاج والتنمية الاقتصادية، وصرفتهم شهواتهم عن الجد والعمل، ومنحهم شحهم عن التضحية والعطاء لدعم البناء المادي لحياتهم وتحقيق العدالة الاجتماعية فيها ، وقد كان لهم في الصلاة لو يتذكرون تعزيز لقوتهم الواهية ، وتمكين للإيمان الذي هو دافع كل جهد مبذول ومنطلق كل نهضة منشودة .

ومن مظاهر اضاعة الصلاة التفريط في صلاة الجماعة . وقد روى عن ابن مسعود : « من سره أن يلقى الله غداً فليحافظ على هؤلاء الصلوات حيث ينادى بهن فإن الله شرع لنبيكم سنن الهدى ، ولو أنكم صليتم في بيوتكم كما يصلي هذا المتخلف في بيته لتركتم سنة نبيكم ولو تركتم سنة نبيكم لضللتم، وقد رأيتنا وما يتخلف عنها إلا منافق معلوم النفاق ولقد كان الرجل يؤتى به يهادي بين الرجلين حتى يقام في الصف »[1] . فقد كانت الجماعة في صدر الإسلام سنة لازمة واليوم هجرها المسلمون إلا الجمعة . وذلك عامل غير ضئيل من انفضاض جماعتهم ووهن أسباب التضامن والتراحم بينهم . وقد تقلص الشعور بالمسئولية الاجتماعية وقل من يأبه لواجبات الكفاية ويهتم لرعاية شئون المسلمين العامة، من الائتمار بالمعروف والتناهي عن المنكر والتواصي بالحق ، بل تفرق المسلمون فلم يعودوا صفاً متراصاً متحاذياً يتنادون لكل أمر جامع ، فيلبون الداعي للخير ويتجاوبون

---

(١) مسلم .

منعطفين إلى صلاحهم المشترك، وإنما هم شيع وعزين كل حزب بما لديهم فرحون تشتتهم الأهواء والعصبيات، وبدلوا بالتساوي والتآخي فوارق الطبقات من بغي الكبراء وحقد الضعفاء .

وكانِ للمسلمين في الجماعة لو حفظوها وأحسنوها ما يصون لهم وحدتهم وتضامنهم، وكان لهم ما يهديهم إلى اتخاذ القيادة الرشيدة التي ترعى شئون الجماعة، وإلى تنظيم العلاقات السليمة بين القائد والرعية ، ولكنهم يفوتون الجماعة أو يشهدونها بلا وعي ولا تدبر فينصرفون عنها ولا تقوم لهم بعدها قيادة ، ولا إمامة دينية يصفون وراءها للحكم أو للجهاد ، بل يتفرقون على القيادات التقليدية الضالة ، وقد علموا أنه لا طاعة لقائد إلا في حدود الشرع ،وأن الجهر بالنصيحة هو أدب المسلمين يلازمهم حتى في الصلاة القانتة، وأن القيادة في الإسلام شرطها الكفاءة وقاعدتها الرضى ، لا اعتبار فيها لولاء العصبية أو وراثة التقاليد ، وأنها تقوم على اجتهاد القائد في النصح والإحسان لأتباعه ، وأخذهم بالرفق والتواضع ،وعلى قيام الرعية بالطاعة الدقيقة والنصح الجميل للحكام — وكلها أحكام يفتقدها المسلمون في أوضاعهم العامة،وفي إقام صلاة الجماعة وإحسانها ما يعين على استدراكها .

وختام القول : إن الصلاة هي أولى الفرائض العملية وأجل أعمال الإسلام وشعبة الإيمان الكبرى،فمن ضيعها فقد اقترف كفراً ، واستغضب ربه وخان عهد الرسول . وهو بتركها آيل إلى التفريط في كثير من تعاليم الدين، من واجب تأمر به

الصلاة ومنكر تنهى عنه وأعمال صالحة تستتبعها ، وهو مستزيد بذلك من سخط الله ، وإذا غضب الله على قوم فانه منزل بهم كل ضروب الخسران – يغري بينهم العداوة والبغضاء ويضرب عليهم الذلة والمسكنة ويذيقهم عيشة ضنكا ، ويصب عليهم سوط عذاب – ذلك خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى عذاب عظيم .

تلك آثار الصلاة الطيبة يجدها المسلم في حياته الأولى قبل أن يلقى ربه فيجزيه الجزاء الأوفى . وذلك هو الخسران من إضاعة الصلاة يلقيه الشقي في عاجلته قبل أن يقف موقف الحساب . فالله أسأل أن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته وأن يقبل صلواتنا ، ويجيب دعواتنا ، ويغفر زلاتنا ، ويؤتينا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ويقينا عذاب النار .

الفهرس

المقدمة ٥
الصلاة أولى الفرائض العملية في الدين ١١
الصلاة السمة المائزة لأهل الاسلام ٢٣
الصلاة استغراق دائم في عبادة الله ٤١
الصلاة توجه إلى الله وإلى القبلة الواحدة ٥٧
الصلاة تمام التجرد والاخلاص لله ٧٠
الصلاة خشوع وطاعة لله والرسول ٨٣
الصلاة طهارة وإنابة وتقوى ٩٧
الصلاة تزكية للإيمان وقوة لدوافع الإيمان ١٠٩
صلاة الجماعة تربية اجتماعية كاملة ١٢٤
خسران المسلمين باضاعة الصلاة ١٤٨

النادي الشبابي